

لويجي جوساني

في أصل الإدعاء المسيحي

المجلد الثاني من "المسيرة"

تعريب

د. سناء مدحت فضل

الشماس صبحي نصري مخول

الأستاذ كميل جميل عيد

فليطبع
أبرشية ميلانو
١٥ شباط ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب
All'origine della pretesa cristiana
Volume secondo del PerCorso

الطبعة الأولى
عيد انتقال العذراء - ٢٠١٠

مطبعة البطريركية اللاتينية - القدس
بيت جالا - ٢٠١٠

تقديم

لا يكتفي الإنسان بالإنسان: ربّما لهذا السبب يحدّد الأب جوسّاني مسيرةً - كونه أوّل من أخذ زمام المبادرة ولحق به الكثيرون من كلّ أقطار العالم - فبعد الجزء الأوّل حول "الحسّ الدينيّ"، يتأمّل في المرحلة الثانية هذه حول أصل إيمان الرسل، ليصل لاحقاً، في الجزء الثالث، إلى التأمّل في كشوننا اليوم مسيحيين، وفي الكنيسة، أي في حضور المسيح بيننا، حيث أراده حضوراً دائماً.

مسيرة بدأت بتبيان كم أنّ عطشنا إلى اللانهائي وحاجتنا إلى معرفة مصيرنا الشخصي، والموجودان في كلّ إنسان، يحملان كلّ منّا على توجيه السؤال الأبديّ الذي دفع فرنسيس الأسيزي إلى خلوة أحرّاش لافيرنا، حيث فاجئه الأخ ليون وهو "راكعٌ يصليّ رافعاً وجهه ويديه نحو السماء" وهو يسأل: "من تكون أنت، يا إلهي العذب؟ ومن أنا، غير دودة حقيرة وخدام غير نافع لك؟". إنّ البعد الذي لا قياس له الفاصل بين الخالق والمخلوق لا يعدو أن يكون، بإرادة إلهية، سهلاً شاسعاً تراه مخيّلة الأب جوسّاني مأهولاً بجماهير تحاول - بتعبٍ وشغف - الوصول إلى السماء، وليس البتّة هاهوية لا يمكن اجتيازها. وجهدهم هذا، الحميد بقدر ما هو باطل، يجد اكتماله "في لحظة ما" (ملء الزمن)، عندما يحتضن إنسانٌ كلّ عمل البناء المكثّف صارخاً "توقّفوا... تخلّوا عن مشاريعكم والقوا جانباً أدواتكم: لقد رحمكم المصير: اتبعوني، فأنا هو المصير".

إنّ ما ينتظره ويطلبه الحسّ الدينيّ عند كلّ إنسان، يأتي بيننا، ينزل، يحطّ، يتجسّد. يجعل من نفسه وجهاً، فضاءً، يتحقّق فيه التوق الإنسانيّ والبحث المتواصل عن معنى للحياة. إنّ المصير، كما يسمّيه الأب جوسّاني،

يُحطِّمُ الحدودَ ويندفع داخل تاريخ الإنسان ويتَّخذ وجهًا واسمًا وتاريخًا وجسدًا ومكانًا ملموسة محسوسة مرئية.

المسيح هو الوجه والاسم والتاريخ والجسد والمكان. وكلّ إنسان، كلّ شخصٍ منّا، يفسح مجالاً لبحثه المضطرم، في حقٍّ وتواضع، ويريد بحريّة أن يستجيب لكونه "إنساناً"، من روح وجسد، كلّ إنسان مندفع لا يمكنه تحاشي اللقاء مع ابن الإنسان.

إنّ الأرض المقدّسة تقدّم لنا جمال هذا اللقاء. لأنّ الله سكن هنا في فضائه - المكان - أماكن هذه الأرض التي تشهد لنا إنّ الإيمان المسيحيّ ليس فلسفة، ولا رواية معزّية، ولكنّه اللقاء مع شخص، مع واقعٍ يُشركنا معه لدرجة أنّنا نستطيع أن ندعوه مصيرنا. المجيء إلى الأرض المقدّسة، ولمس هذه الأماكن، يعني عيش خبرة المكان. والخبرة التي نعيشها حول الله هي معرفة رحمته معرفة عميقة.

الله محبة، الله رحمة. "هذا الفداء لا يتمّ تلقائيّاً"، يقول لنا الأب جوسّاني. "إنّه لمن الأساسيّ أن نقبل المساعدة التي قدّمها لنا يسوع المسيح ونتعاون بفاعليّة. وهذا يتمّ من خلال حبٍّ حرٍّ... فالحرّيّة سوف تتحقّق وفق مجمل طبيعتها، كإمكانية رضى تامّ، في المجال الكامل لاكتمالنا. والحرّيّة هي مقدرة على اللانهاية، هي عطشٌ لله. الحرّيّة هي إذاً حبٌّ، لأنّها مقدرة على شيء ليس نحن، ولكن آخر".

هذا الكتاب لا يمكنه إلا أن يستحوذ، في زمننا، على كلّ من يطرح تساؤلاً عن يسوع، كمكان حدث اللقاء. فنجد فيه، برحمته اللامتناهية، الجواب على عطشنا إلى الحبّ والعطاء، والحقيقة حول مصيرنا كبشر، خلّقنا إخوة، قادرين على عيش الرحمة ووهبها لأنفسنا والشهادة لها.

الأب بيير باتيستا بيتسابالا

حارس الأرض المقدسة

"ثم وصلوا ، في لحظة محدّدة قبلا ، في لحظةٍ في الزمن وفي لحظةِ زمن ، في لحظة ليست خارج الزمن بل في الزمن ، في ذاك الذي ندعوه التاريخ : في تقسيم لعالم الزمن ، للحظة داخل الزمن ، ولكن ليس كل لحظة زمن .

لحظة في الزمن ، ولكن الزمن خُلِق من خلال تلك اللحظة : لأنه بدون معنى لا وجود للزمن ، ولحظة الزمن تلك هي التي أعطت المعنى .

كما لو أنه يجب على الرجال السير من النور إلى النور في نور الكلمة (كلمة الله) ، ومن خلال الآلام والتضحية تم خلاصهم رغم كونهم سلبيين ؛ إنهم كالعادة حيوانيون ، جسدّيون ، أنانيون ، انتهازيون ، أغبياء كما كانوا دوماً ، ومع ذلك هم في صراع دائم ، في تأكيد دائم ، وفي معاودة دائمة لمسيرتهم في الطريق الذي يضيئه النور ؛ غالباً ما يتوقفون ، يضيّعون الوقت ، يغيرون مسارهم ، يتأخرون ، يعودون إلى الوراء ، ومع ذلك لا يتبعون أبداً طريقاً آخر " .

(ت. س. إليوت)

تهيد

هذه هي الطريقة التي نُقلت بها البشرى المسيحية من التقليد إلى أيامنا هذه. إنّ قصدي هو لفت النظر إلى العقلانيّة العميقة لتأكيد إلبوت وللبشرى المسيحية كما عبّر عنها في الأصل. إن المعيار الموجّه للكتاب كلّهُ هو طاعة تقليد الكنيسة الأصيل وكل التقليد الكنسيّ.

قصْدُ هذا الكتاب، وكما في ثلاثيّة "المسيرة"، هو تبسيط الطُرق التي يُمكن وفقها الانضمام يوعي وبُعقلانيّة إلى المسيحيّة، آخذين بعين الاعتبار الخبرة الواقعيّة. وبشكل خاصّ، "في أصل المطلب المسيحيّ" هو محاولة لتحديد أصل إيمان الرُّسل. أردت من خلاله التعبير عمّا يدفع الإنسان إلى الإيمان بالمسيح: عن عمق تجاوب الإنسان وعقلانيّة متطلّباته مع حدث الإنسان يسوع الناصريّ. لقد حاولت أن أبيّن بديهيّة العقلانيّة التي تتعلّق بها بالمسيح، وعندها نقاد من خبرة لقائنا بإنسانيّته إلى السؤال المهمّ حول ألوهيّته.

ليس التفكير المجرّد هو ما ينمّي ويوسّع العقل، بل أن نجد في الإنسانيّة لحظة حقيقة وصلنا إليها وقلناها. إنّهُ التحوّل الكبير في المنهج الذي يشكّل علامة العبور من الحسّ الدينيّ إلى الإيمان: لم يُعدّ بحثًا عن أشياء غامضة، بل الدهول أمام حدثٍ حصل في تاريخ البشريّة، كما وصفه إلبوت في شعره البديع. هذا هو الشرط الذي لا يمكن بدونه الحديث عن يسوع المسيح. بينما يصبح المسيح على هذا الطريق حميمًا، مثل العلاقة مع الأمّ أو الأب، ويصبح مع مرور الزمن أكثر فأكثر جزءًا منّا.

إنّ هذا الكتاب يهمني بشكل خاص، لأنه يعبر عن دوافع إيمانٍ واعٍ وناضج. وفي قراءتي له من جديد بهدف إصدار نشرة جديدة أردت أن أقدم - دون أيّ تغيير في هيكلتيته وبنائه الأصليّ - بعض التعديلات لأجعله أكثر قرباً من قارئ اليوم.

لويجي جوسّاني، ميلانو، تموز ٢٠٠١

المقدمة

عند معالجتنا لموضوع فرضية الوحي والوحي المسيحي، لا شيء أهم من السؤال عن حالة الإنسان الحقيقية. لن يكون ممكنًا إدراك ما يودّ يسوع المسيح قوله بشكلٍ كاملٍ إن لم نُدرك قبل ذلك طبيعة تلك الدينامية التي تجعل الإنسان إنسانًا. بالفعل، يقدم المسيح ذاته كجوابٍ على ما هو "أنا" ووحده الوعي المنتبه والرهيف والشغف لنفسي يمكنني من الانفتاح على المسيح والتهيؤ للإقرار والإعجاب به، وشكره والعيش معه. بدون هذا الوعي حتى اسم يسوع المسيح يصبح مجرد اسم فقط.

١) العامل الديني والحياة

إنّ معالجة موضوع المسيحية، يعني مواجهة مسألة تتعلق بالظاهرة الدينية. وعدم الانتقاص من المسيحية يعتمد على الفهم والكمال اللذين يدرك المرء من خلالهما الحدث الديني بصفته هذه. ولذلك، إذا كان هدفي تحديد بروز المسيحية، فإنه لمن المفيد استعادة بعض الأبعاد الحاسمة للحسّ الديني بصورة عامة. ممّ يتكوّن الحسّ الديني أو البعد الديني للوجود؟ ممّ يتكوّن محتوى الخبرة الدينية؟ ليس الحسّ الديني إلا تلك الطبيعة الأصيلة للإنسان التي يعبر عنها بشكلٍ وافٍ بأسئلة "أساسية"، باحثًا عن السبب الأساسي للوجود في كلّ طور من أطوار الحياة وفي كلّ متطلباتها.^١ نجد إذن في الحسّ الديني التعبير الملائم لذلك المستوى من الطبيعة حيث تصبح الطبيعة وعيًا للواقع حسب شمولية عوامله؛ فعند هذا المستوى تستطيع الطبيعة أن تقول "أنا"، حيث

يُحتمل أن ينعكس في هذه الكلمة كلّ الواقع. كان القديس توما الأكوينيّ يقول: النفس هي بشكلٍ ما كلُّ شيء.^٢ بهذا المعنى، يتوافق البُعد الدينيّ مع البُعد العقليّ، بينما يتوافق الحسّ الدينيّ مع المنطق بشكله الأساسيّ العميق. عرّف الكاردينال مونتيني في رسالة الصوم الكبير الحسّ الدينيّ كـ "خلاصة الروح".^٣

وكلّ اندفاعات الإنسان الطبيعيّة، إي كلّ خطوات الإنسان الناتجة عن تحرّك واعٍ وحرّ، كل تلك الخطوات يُحدّدها ويجعلها ممكنة ويحقّقها ذاك الدافع الشامل الذي هو الحسّ الدينيّ. إنه يتوافق مع الحاجة الماسّة إلى وصولٍ كامل وإلى كمال وافٍ ويتّخذ موضعاً خفياً ولكن حاسماً داخل كلّ ديناميّة، داخل كلّ حركة في حياة الإنسان، ولذا تبدو فيه كلّ حركة مشروعاً يُتمّيه ذلك الدفع الشامل، ذلك الحسّ الدينيّ.

أ) ملاحظة حول كلمة "الله"

طوال مسيرة التدينّ الإنسانيّ تؤشّر كلمة "الله" إلى موضوع الرغبة الأساسيّة للإنسان، كـ رغبة في معرفة الأصل ومعنى الوجود الوافي،^٤ في ملء المعنى الضمنيّ لكلّ أوجه ما هو حياة. "الله" هو "الذي" به كان كلّ شيء، هو "الذي" إليه يتوق كلّ شيء، وبه يكتمل كل شيء. في المحصلة، إنّه الذي "تُسْتَحَقُّ" لأجله الحياة وعليه "تنطوي" وفيه "تدوم".

لا يُمكن أن نسأل من يدّعي أنّه لا يؤمن بالله ماذا تعني كلمة "الله". إنها شيءٌ ما يفاجئ خبرة مَنْ يستعمل تلك الكلمة ويعيشها بجدية. وأعطى مثالا على ذلك يعود إلى فترة تدريسي حين تمّ عرض مسرحيّة "الشيطان والرب" لجان بول سارتر في أحد مسارح ميلانو، وتأثّر بها بعض طلاب

ثانويّ فكانوا يُعيدون بعض عبارات سارتر المستهزئة بالله. فحاولت بكل هدوء أن الفت نظرهم إلى أنّ من يستهزئون به في تلك اللحظة هو إله سارتر، أي أنّه كان بالنسبة إليّ إلهًا لا يُمكن الوثوق به، ولا يتطابق إطلاقًا مع ما أؤمنُ به. وكنت أدعوهم للتأمل فيما إذا كان الذي شاهدوه في المسرح هو "إلههم"، أو إذا كانت هذه هي طريقة تفكيرهم بالله.

ب) ملاحظة حول السؤال الذي يقود إلى بحث دقيق

إن الله، بصفته الموضوع الشافي للجوع والعطش الإنسانيّ، والحاجة المكوّنة للوعي والعقل، هو بالفعل حضورٌ مهيمٌ دومًا على الأفق الإنسانيّ، لكنّه يقيم دومًا ما وراءه. وكلّما زاد الإنسان سرعته في البحث تراجع هذا الأفق وبدل موقعه. إنّها خبرة هيكلية لدرجة أنّه إذا افترضنا وجود إنسان ما على كوكبنا بعد مليار قرن يجب أن نقول إنّ المسألة سوف تُطرح عليه كما في يومنا هذا، رغم الاختلافات غير المتوقّعة لظروف حياته.

إنّ حالة التفاوت وعدم إمكانية الوصول المستمرة تسهّل على الوعي ظهور فكرة السرّ، أي إدراك أنّ الموضوع الخاصّ والملائم للمطلب الوجوديّ لا يمكن قياسه بالمنطق كـ "مقياس"، أو بقدرة القياس التي يملكها هذا المطلب. إنّ الموضوع الذي يتوق إليه الإنسان لا يعود إلى أيّ نقطة وصول، إلى أيّ هدف يستطيع بلوغه. كلّما تقدّم الإنسان أصبحت عدم إمكانية وصوله أكثر وضوحًا بدلا من أن يقترب شيئًا فشيئًا. وحده الإنسان "الجاهل" يدّعي إمكانية الوصول. إذا "لم يتجاهل" الفرد ذاته في علاقته بالواقع، إذا كان "واعيًا" بالمعنى الحقيقي للكلمة، أي باحثًا متنبّهًا، فسوف يجد نفسه مُرغمًا على مواجهة التفاوت الدراميّ الذي وصفناه.

٢) الوضع الإنسانيّ الذي يسبّب الدُوار

لنتمنّ بالحالة الوجوديّة التي يعيش فيها الإنسان. إن ذلك "الإله"، ذلك الواقع الذي تُستحقّ من أجله الحياة، كما رأينا، هو الذي كان به الواقع والذي نتوق باستمرار إلى ظهوره. أنا، الإنسان، مُرغمٌ على عيش كلّ خطوات وجودي داخل سجنٍ أفقي يهيمن عليه "مجهولٌ" لا يمكن الوصول إليه.

وكلما ازداد وعيي ازداد الموضوع دراميّة. لأنّه إذا كان منتهى العبء يكمن في العيش ساهين، فأنّه من الواضح أنّ المشاكل المتعلّقة بهذا الموضوع تقلّ بالنسبة للأغبياء. إنّي، وبوعبي الكامل، مُرغمٌ انطلاّقاً من وضعي الوجودي على القيام بخطوات تجاه ذاك المصير الذي أتوق إليه بكلّيّة وإن كنت لا أعرفه. إنني أعلم بوجوده، لأنّ هذا الأمر تتضمّن ديناميّة، وأعلم أنّي بكلّيّة مُرتبطٌ به. به يتعلّق الحسّ الإنسانيّ واللذة التي أشعر بها، وكلّ ما أستحسن يتعلّق بذلك المصير، لكنه يبقى مجهولاً. يستوعب الإنسان الواعي بهذا الشكل معنى الواقع، أي ما يتوق إليه العقل هو "X" غير قابل للفهم ولا يمكن العثور عليه في قدرة ذاكرة العقل. إنّه خارجها. إنّ العقل في ذروته يُمكنه الوصول إلى استيعاب وجوده، لكنّه في وصوله إلى الذروة يفقد قدرته ولا يستطيع التقدم أكثر. إنّ ذروة العقل تكمن في إدراك وجود السرّ. ولكن، رغم عدم إمكانيّة الوصول إلى معرفة ما يشعر بوجوده بالحدس وما يتعلّق به - ذاك يتعلّق بالفعل بمعنى الأشياء، وباهتمام كل الاهتمامات -، يحتفظ العقل بهيكلية حاجته المعرفيّة: يودّ أن يعرف مصيره. إنّّه أمرٌ يثير الدُّوار أن نكون مُرغمين على الانتماء إلى شيءٍ ما ولا يُمكننا الوصول إلى معرفته ولا فهمه. كما لو أنّ كياني كلّهُ مُعلّقٌ بشخصٍ يقف خلفي ولا يستطيع رؤية وجهه. كما قال شفايتسر للممرضة في المسرحيّة: "أعرفين غياباً أكثر قوّة من الحضور؟".^٥

إنَّه وضعٌ مدوّخٌ أن أُجبرَ على طاعة شيءٍ أستشعرُ بوجوده ولكنّي لا أراه ولا أستطيع رؤية أبعاده ولا أملكه. بالفعل، يدعو المصير أو المجهول حياتي نحوه من خلال الأشياء وتراكم الظروف المؤقّتة والفانية، والإنسان العاقل مدعوٌّ، وإن كانت تنقصه إمكانية رؤية أبعاد وامتلاك ذلك المجهول، إلى عملٍ ينطوي قبل كل شيء على وعي حالته ثم على الانتماء بشكل واقعيٍّ، في كلّ ظرف بدوره، إلى المتطلّبات الوجوديّة، دون رؤية الهيكلية التي تسند كل شيء والتصميم الذي يأخذ فيه المعنى شكله. عندما يقول الله في نبوّات العهد القديم: "لا طرقكم طريقي، ولا أفكاري أفكاركم"،^٦ كان ينبّه بني إسرائيل إلى هذا التفاوت الوجودي الذي لا يمكن إلا أن يبدو خبرةً تضارب. يشعر الإنسان بأنّه يسير نحو المجهول، منتميّاً إلى كلّ قرار، إلى كلّ خطوة تقتضيها الظروف التي تفرض نفسها كمحفّزة لا بدّ منها، ولكن عليه، وبما أنّه يعيها كما هي، أن يُجيبَ بـ "نعم" بكلّ طاقة عقله وقلبه دون أن "يفهم": إنّها هشاشةٌ مطلقة، مُدوّخة. ينتهي الأمر بالإنسان إلى عدم المقاومة، وإن أقرّ بإمكانية تبلور لحظةٍ نظريّة يستطيع خلالها أن يأخذ موقفَ انتماءٍ إلى ذلك المجهول الذي يقوده. يُدرك الإنسان في لحظةٍ وضعه المثير للدوّار، ويعي أبعاد تفاوته. لكن تذكّر تبصّره هذا لا يدوم طويلاً. إنّ لحظة إدراك التفاوت "الفلسفيّة" هذه ما بين الإنسان والمعنى الشافي للأشياء يُعبّر عنه أفلاطون بشكلٍ مبسّط في حديث تيمايوس عن خالق الأكوان: "من الصعب جدّاً العثور على صانع وأبٍ هذا الكون، ومن غير الممكن التحدّث إلى الجميع عنه".^٧ وأيضاً: "إنّ الله يملك معاً العلم والقدرة من أجل مزج أشياء عديدة في وحدة، وتجزئتها من جديد من وحدة إلى أشياء عديدة؛ لا إنسانٌ يعرف الآن القيام بأيٍّ من العملين، ولن يعرف أبداً القيام بهما في المستقبل".^٨

كثيرة هي في تاريخ البشريّة شهادات الضياع من جهة، ومن جهة أخرى الاستسلام العاجز التي يسببها ذلك الدُوار، ذلك التفاوت العميق، على كلّ المستويات وفي كلّ العصور.

إنّ الكلمات الدراميّة التي وضعها صوفوكليس على لسان بطل مسرحيّة "الملك أوديب" تبقى مُعبّرة: "إنّ البشر هم ألعوبة الآلهة. إنهم كالذباب بين أيدي أطفال قُساة، يقتلونّها للتسلية".^٩

حتّى وإن لم نصل إلى ذلك الاستنتاج المُربّع، استنتاج لغزيّة المصير، تبقى كثيرة جدًّا التساؤلات والشكوك التي تحوم في هذا المجال: إنّ ما يستطيع الإنسان بلوغه بقواه الذاتيّة بخصوص الإلهيّ، بخصوص معنى مصيره، لا يفقد أبداً تصوّر كونه غارقاً في مستنقع غير آمن ورهيب. هناك عبارة منسوبة إلى كزينوفانيس حول المعرفة: "لم يعرف أيُّ إنسان ولن يعرف أبداً ما هي الحقيقة الأكيدة حول الآلهة [...] ولنفرض أنّه تمكّن تماماً من قولها إلا أنّه لن يعرفها؛ يتعلّق الأمر ههنا برأيٍ حول كلّ الأشياء".^{١٠} وبعد كزينوفانيس يعترف بروتاغوراس في افتتاحيّة عمله عن الآلهة قائلاً: "لا يمكنني أن أعرف ما إذا كانت الآلهة موجودة أم لا، ولا كيف شكلها؛ لأنها عديدة هي العوائق التي تعترض تلك المعرفة: غموض المسألة وقصر الحياة الإنسانيّة".^{١١}

وبعد قرون عديدة، وفي أجواء مختلفة تماماً، ورغم اعتدال بدايته الوثيقة، ألا يظهر نفس الضياع في صلاة الشاعر الدينيّ الهنديّ توكارام الذي عاش في القرن السابع عشر؟

"هل يتعيّن عليّ أن أشرح لك يا إلهي؟ ألا تعرف كلّ شيء عني؟ قرّر! سوف أبقى هنا. إنّ نفسي عرجاء، ولا أعرف أيّ علاج سوى أن أضع دائماً تحت قدميك حياتي. التمتع والتخلّي هما شرّان: عمّ أتخلّي وبمّ

أحتفظ؟ لم أستطيع أبداً أن أقرر. عندما يفقد طفلُ أمّه في الغابة ولا يتمكّن من إيجادها يبكي، يا فيثال".^{١٢}

عظيمة تبرز في هذا المجال شخصية إبراهيم. يروي الكتاب المقدس أنّه عندما طلب منه "المجهول"، الذي كان قد وعده بذرية كثيرة، أن يقتل ابنه الذي كان قد وُهب له كأول تحقيق للوعد نفسه، أي أنّه عندما ظهر "المجهول" مجدداً بكلّ ثقل تدبيره السريّ المتحدّي، أجابه إبراهيم: "ها أنا". وخرج في ذاك الصباح مع ابنه نحو مكان لا يعرفه، لسبب لا يعرفه، مستعداً لإتمام الذبيحة حيث أشار إليه الله، ذبيحة لم تتم برغبة من الله.^{١٣} يظهر إبراهيم في تلك اللحظة كصورة نموذجية للإنسان في كلّ أبعاد قامته ودراميته، كصورة للإنسان المتواجد داخل الدوّار، ينجرّ إلى عمق الدوّامة حيث يلفّه السرّ. دوارٌ عادةً ما نحاول نسيانه، دوامة لا يستطيع الإنسان العاديّ الصمود فيها.

٣) العقل في بحثه عن حلّ

كيف يمكننا إذن بلوغ الهدف داخل هذه الغابة ودونما دليل؟ يقول القديس توما الأكوينيّ إنّّه في التاريخ بلغ عقل الإنسان شيئاً من حقيقة الإلهيّ عند بعض الشخصيات الهامة فقط، بعد جهد كبير وبعد الوقوع بأخطاء خطيرة.^{١٤}

ومع ذلك، فإنّ العقل يحثّه دافع هيكليّ في بحثه عن حلّ.^{١٥} لا بل أنّ العقل، حسب طبيعته، ينطوي على وجود حلّ.

رغم أنّ الإنسان أثبت طيلة مسيرته بأنّه استطاع استيعاب معنى هذا التفاوت الأوّليّ، بعد أن قاله وتصوّره بتلاوين مختلفة، بين أنّه لا يستطيع تذكره في حياته العملية. إذ تبرز دائماً الرغبة بإخضاع المصير لإرادتنا، الرغبة في تحديد المعنى أو القيمة حسب ما يروق لنا.

الفصل الأول

الإبداع الديني للإنسان

أمام اللغز الأساسي، حاول الإنسان أن يتصور ويعرّف هذا السرّ وعلاقته به، وأن يدرك طريقة العلاقة معه ويُعبّر عن كلّ الانعكاسات الجماليّة التي كان يُعطيها تصوّر ذاك "الأساسي".^{١٦}

إنّ الجهد الإنسانيّ في تصوّر العلاقة مع السرّ مُرتبطٌ بِصلةٍ وثيقة مع الواقع، وهو لهذا تعبيرٌ منطقيّ.^{١٧} ولذلك، يُمكن القول عن حقّ إنّ الإنسان قد حاول في كل الأزمنة أن يتخيّل العلاقة الموجودة بين نقطة وجوده الفانية والمعنى الشامل له. ليس هنالك إنسانٌ - بشكلٍ ما ودونما تفكير - لا يحدّد جوابًا على السؤال حول ما يكوّنه في نهاية المطاف.^{١٨} ولهذا السبب ذاته فإنّ الفرد الذي يعيش خمس دقائق فقط يؤكّد وجود "شيء ما" يستحق من أجله العيش تلك الدقائق الخمس في نهاية المطاف. وللسبب عينه، فإنّ الفرد الذي يُطيل وجوده يؤكّد وجود شيء ما (quid) يشكّل ملء معنى حياته في نهاية المطاف.

الدين هو ذاك المجموع المعبر عن الجهد التصوّريّ، المنطقيّ، بمحفراته والصادق بالغنى المُستقى منه، وإن كان قابلاً للفساد في السهو وفي رغبة امتلاك السرّ. إنّهُ مجموعٌ معبرٌ يملك مفهوماً، ويكون عملياً وطقسياً، ويتعلّق بالتقاليد والبيئة واللحظة التاريخيّة، وكذلك بكلّ طبعٍ شخصيّ. وبالفعل، فإنّ كلّ إنسان يتممّ، هو بذاته وبسبب وجوده، تلك المحاولة في تحديد تصوّر ذاك الذي يُعطي معنى. الدين يتعلّق بالوضع التاريخيّ - البيئي والطبيعيّ للأشخاص.

نظرياً كل فرد بإمكانه أن يبتدع ديناً له. ولكن، في ديناميّة الحياة البشرية، هنالك دورٌ مُبدعٌ للمجتمع: إنه دورُ العبقرية. فالعبقرية هبةٌ اجتماعية بامتياز تُعبّر في وسط الرفقة البشرية عن العوامل التي تشعرُ بها الرفقة نفسها بشكلٍ حادٍّ أكثر من غيرها، لدرجة أنهم كلّهم يشعرون بأن العبقرية تعبّر عنهم أكثر مما تعبّر محاولاتهم. وهكذا فنحن نشعر بان كآبتنا تُعبّر عنها بشكل أفضل نغمات شوبان أو قصائد ليوباردي أكثر مما تعبّر عنها نحن بأنفسنا إذا ما حاولنا نظمَ لحنٍ أو كلمات حول الموضوع. ففي تاريخ البشرية، تجمع العبقرية الدينية حولها، معبرةً هكذا بشكل أفضل من أيٍّ آخر، عن مهارة السلالة البشرية، كل الذين بمشاركتهم بيئتها التاريخية – الثقافية يشعرون بأن ديناميّة بحثهم عن "المجهول" قد أصبحت فيها ذات قيمة.

(١) بعض مواقف البنيويّة الدينيّة

إن الإنسان، وفي ذروة منطقيّته في إدراكه للسّر، لا يستطيع في أيّ لحظة من تاريخه تحمّل دوار ذلك الحدس لفترة طويلة. ولعدم تمكّنه من البناء في هشاشة مُطلقة (كمثل مواجهة الحياة أمام اللغز النهائي) يبحث الإنسان عن مجالٍ بحسب قياسه تُشيدُ عليه إبداعيّاته "مكاناً" علاقته بالسّر. وأمام السّر الذي يدركه حاسماً بالنسبة له، يعترف الإنسان بقوة السّر دون مقاومة الرغبة في استبعاد نفسه بغير شرطٍ إلى "مجهول"، يحاول على أيّ حال تصوّره بعلاقته به ووفق تعابير وُضعت من أجله.

كثيرةٌ هي آثارُ هذا الإبداع التي تركها الإنسان خلال مساره الطويل، منذ ما قبل التاريخ وإلى يومنا هذا. لكنّه من غير المناسب في عرضنا هذا ألا نُحلّل بالتفصيل الإنجازات ولا ندّعي إحصاء غنى وعمق محاولات

الإنسان هذه. ولذلك سوف نتحدث حصراً عن الموقف الأصلي الذي تضمّره، ممّيزين طرقاً خاصّة للنبويّة الدينية تنفع أيضاً في خبرات مستخلصة من ظروف مختلفة.

الإنسان "لا يعرف" ويجهّد في صياغة علاقة تبادل مع السرّ.

أ) إنّ التعبير الأوّل عن هذا الموقف هو عندما يشعر الإنسان بأنه مُرغمٌ على الخوض في الانسياب المنسجم للكون والتاريخ، وفي احترامه لقواعد ذلك الانسجام الذي يبدو وكأنّه مدفوعٌ من قوّته الذاتيّة، يتبع مصيره ويتصوّر السرّ كأصلٍ ونتيجة ذلك الانسجام الطبيعيّ الذي يحاول إطاعته.^{١٩} فالإنسان يحاول لهذا السبب التغلغل في ما لا يستطيع معرفته، عاقداً معه اتفاقاً مُنسجماً بإمكانه "إدارته".

وهكذا يتحوّل "المجهول" إلى "انسجام"، ويتمّ افتراض عالمٍ يحكمه الانسجام، يستطيع الإنسان فيه اللجوء إلى قوانينه كأيّ قوانين أخرى.^{٢٠}

ب) ويبدو التعبير الثاني بوضوح كتبادلٍ وعهدٍ وعقدٍ بين القوى المتصورة التي تقود العالم والإنسان الذي يحاول إعطاء معنى وفعاليّة للزمان الذي يعيشه.^{٢١}

ج) الإنسان "لا يعرف"، ولكنه يجازف بتوجهه بثقة نحو تقبّل "الآخر" له.

إنّ موقف الثقة هذا موجودٌ في الديانات القديمة، كالديانة المصرية. ومثالٌ ذو معنى بشكلٍ خاصّ يقدّمه لنا مقطعٌ من أنشيد أمون لليدا: "لديه عيون وآذان ويرى من كلّ مكان مَنْ كان له مُحبّاً. إنّه يستمع إلى صلاة من يُناديه. إنّه يصل في لحظة ومن بعيد إلى جانب من يدعوّه".^{٢٢}

وبنفس نيرة الثقة بسرّ مُنقذ يبدأ القرآن، كتاب المسلمين المقدس، وصلواتهم: "بسم الله الرحمن الرحيم". وفي بعض المقاطع القرآنية القديمة يتم التعبير بشكل رائع عن هذا الاقتناع الواثق بعناية الله بخليقته هي "خليقته".

"إِنَّ رَبَّكَ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْكَ وَلَا يَكْرَهُكَ
وحياتك في الآخرة ستكون أحمل من السابقة
وسوف ينعم عليك الله، وتكون سعيدًا.
(ولكنه سبق أن أبان لك في هذه الحياة نعمته)
ألم يجداك يتيمًا وأعطاك مأوى؟
ألم يجداك ضالا فأراك الطريق؟
ألم يجداك فقيرًا فأفاض عليك الخيرات؟" ٢٣

وكيف لا نذكر في محيط ديانة إسرائيل النصّ الرائع للنبي هوشع، والذي اقتبسه أيضًا التقليد المسيحي؟ هنا يعلن النبي موقف الثقة المطلقة بالعناية الإلهية جاعلا إله إسرائيل يتكلم هكذا:

"يوم كان إسرائيل فتى أحببته، ومن مصر دعوت ابني. كلما دعوته هرب من وجهي. ذبح بنو أفرايم للبعل وبخروا للأصنام، وأنا الذي علّمهم المشي وحملهم على ذراعه، لكنهم لم يعترفوا أنني أنا أصلحت حالهم. جذبتهم إليّ بحبال الرحمة وروابط المحبة، وكنت لهم كأب يرفع طفلا على ذراعه ويحنو عليهم ويطعمهم". ٢٤

أودّ اختتام هذه التلميحات المختصرة حول الإبداع الدينيّ آخذًا بعين الاعتبار كرامة جهد الإنسان هذا. فلدى كلّ كائن بشريّ حاجة لا غنى عنها في البحث عما هو المعنى الأخير، النهائي، المطلق لوجوده. وأية بنية دينية تعكس واقع أن كل فرد يبدل الجهد الذي يمكنه، وهذا هو بالذات

القاسم المشترك الفعّال بين كل الإنجازات الدينيّة: السعي. وكلّ ما هو مختلف بينهم هو طريقة التعبير. والتي تتعلق بعدة عوامل؛ لكن تلك الاختلافات لا تمسّ القيمة المذكورة.

(٢) باقة فرضيّات

أ) عندما ينتبه الإنسان الواعي لوجود العديد من الديانات قد يراوده الانطباع بأنّه، ولكي يكون أكيداً من اختياره، عليه أن يبدأ بدراسة الديانات الأخرى والمقارنة بينها ليختار بعدها واحدة. وهو بالفعل يسأل نفسه: "كيف يمكن تعريف ومعرفة قيمة هذه أو تلك البنية؟" لأنّه قد يبدو منطقياً الانتماء إلى تلك التي يستنتج بأنها الأفضل. هذا الموقف تبناه رسمياً المذهب العقليّ الحديث والمعاصر: فمن خلال معرفة كافّة الأديان فقط، يمكن للفرد اختيار الديانة التي تبدو له عن وعي أكثر ملائمة وصدقاً. ولكن هنا تنكشف تجريدية هذا الموقف: إنه ليس مثاليّاً بل مجرد وهم. إذ أنّه يقترح عملاً غير قابل للتحقيق عمليّاً.

إنّه لمن الوهم تمّي معرفة كل الأديان للتمكّن من اختيار أفضلها، وكلّ ما هو وهمي هو مثاليّ زائف. فالمثاليّة هي الديناميّة السائرة لطبيعة الإنسان والتي يكتمل جزء منها عند كلّ خطوة. الوهم هو خارج هذه الطبيعة، أنه حلم يتعدّها، وغالباً ما يكون حجّة للتهرّب أو لغصب الواقع. الوهم هو دوماً عنف. إنّ قبول ضرورة معرفة كلّ الأديان التي أنتجها تاريخ البشرية، في سبيل القيام باختيار منطقيّ هو معيار تتوافق فيه تجريدته مع عدم إمكانية التطبيق.^{٢٥}

ب) من الممكن أن نتراجع نحو معيار محاولة معرفة الأديان الأكثر "أهمية" أو تلك الأكثر انتشاراً: على سبيل المثال، اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام

والبودية. ولكن هذا المعيار يبدو جزئياً حتماً. فهذا كان الحال على سبيل المثال في روما قبل ألفي سنة، عندما كتب تاتشيتوس وسفيتونيوس وكانت هناك مجموعة من الأفراد في عاصمة الإمبراطورية، فهما يعتقدان أنها "ملة صغيرة" من اليهود المتعلقين "بشخص يُدعى المسيح".^{٢٦} كانوا مسيحيين، ولو كنتُ أعيش في ذلك العصر والمكان وتبعْتُ آراء المثقفين، لكان عليّ التغاضي عن تلك المجموعة الصغيرة من الأفراد ولكان من المستحيل عليّ اكتشاف أنّ الحقيقة التي أبحث عنها كانت هناك بالتحديد. إذا كان المعيار معياراً حقيقياً، فيجب أن يكون قابل للتطبيق في كل الحالات.

(ج) وتصوّرٌ آخر للدعاء التجريديّ التنويريّ هي الفكرة التوفيقية: وهي خلقُ نوعٍ من الدين العالميّ الذي يتبنّى كلّ ما هو أفضل في كافة الأديان؛ فهي دوماً متبدلة، إنها مختصرة ما هو الأفضل في البشرية. ولكننا لا ننتبه كيف أن الأفضل لأحدٍ ما قد لا يكون الأفضل لشخصٍ آخر. ونجد أنفسنا إمام الافتراض المعتاد لمجتمع يكون فيه الشعب مُستسلماً لإرادة جماعة من المُستنيرين. فإذا كان طبعي الدينيّ قد أوصلني لاكتشاف "أ" وطبع شخصٍ آخر قد أوصله لاكتشاف "ب" وكان هناك شخصٌ ثالث يودّ إيجاد "ج" متخذاً الأفضل من "أ" و "ب" فذلك الـ "ج" لن يمتلك في أيّ حال الصفات الشمولية المطلوبة، لأنه سيكون بأيّ حال اختياراً طبعياً كما هو الحال في "أ" و "ب".

(د) يبدو الحلّ التجريبيّ، على العكس من ذلك، أكثر صواباً. فالفرد يولد في بيئةٍ معيّنة وفي لحظة تاريخية معيّنة، والدين الذي يعبر عن بيئته لديه احتمالٌ كبير بأن يكون التعبير الدينيّ الأكثر ملائمة لطبعه. ولهذا، إذا ما أردنا طرح قاعدة ما غير مطلقة وملائمة، فيجب أن نقول: ليتبع كل فرد ديانة تقاليده.

وقد يسمح لقاء ما في الحياة يومٍ بضربى، أو عقيدة، أو قاعدة أخلاقية، أو انفعال أكثر ملائمة للمنطق الناضج للفرد أو لتاريخ قلبه. وعندها بإمكان الفرد "التغيير"، "الاهتداء" (لاحظ نيومان بأن "الاهتداء" ليس سوى الاكتشاف الأكثر عمقاً وصدقاً لما كان يؤمن به الفرد سابقاً)^{٢٧}. لكن النصح باتباع كلّ منا ديانة تقاليده يبقى الإرشاد الأهمّ دونما ادعاء.

وبهذا المعنى فإنّ كلّ الأديان "صادقة". وواجب الإنسان الوحيد هو أن يكون جدياً في انتمائه إليها.

الفصل الثاني

تطلب الوحي

يَتَخَيَّلُ الإنسان تجاه مصيره وملء معناه طُرقَه التي هي انعكاسُ موارِدِه ولكنّه، وبقدر جدية فكره وأحاسيسه، يُعاني اللغز الأخير كعاصفة من عدم اليقين أو من عزلة الضياع.

إن الإلهي نفسه هو المعين الوحيد الملائم لعجز الإنسان الوجودي المعروف. تلك الإلهية المُسْتَتَرَّة، أيّ السرّ، التي تنخرط بشكلٍ ما مع مشقة الإنسان فتُثيره وتُسانده في خطاه.

لا يمكن أن يكون هذا سوى فرضية منطقية تماماً، أي أنها تتوافق واندفاع الطبيعة البشرية وتلتحم بانفتاحها، وضمّت كلياً داخل فئة المُمكن الكبيرة. لا يقوى العقل على قول ما بإمكان السرّ عمله وما ليس بإمكانه: ولكي يكون أميناً مع ذاته لا يمكنه استثناء شيء مما يستطيع السرّ القيام به.

إذا ما ادّعى العقل فرض مقياس على الإلهي، كمثال عدم إمكانية السرّ الدخول في اللعبة الإنسانية لكي يسانده في سيره، وإذا ما توصّل العقل إلى نكران الوحي فسوف تكون الصيغة القصوى للوثنية، والمحاولة القصوى للعقل بأن يفرض على الله كيف يتصوره هو. قبل أيّ اعتبار، ستكون هذه المحاولة أعلى مظهر من مظاهر اللاعقلانية.

إن استشعار أو أثبات فرضية مساعدة الإنسان تلك تكمن في قلب أكبر الفنون في كافة الأماكن والأزمان. من أفلاطون حتّى ليوباردي تُمكن

قراءة صرخة العقل المندفع نحو هذه الفرضية، التي تبرز بمعايير مختلفة. وبقدر ما هي منطقية تكون حسب طبيعتنا!

(١) بعض الأمثلة

لنر الآن بعض الأمثلة كيف أن التطلّب والزمع الموحى قد يلتقيان في التاريخ الديني للبشرية. فتطلّب وحي ما يُضمّر بالفعل انتظار جواب ملائم من قبل معنى الحياة الذي لا يمكن للإنسان اقتفاء أثره، لا كمعرفة نظرية، ولا كمنافسة بين قوى.

سنستعرض سريعاً بعض الشهادات المختصرة لباحثين كبار بهدف إثبات كيف أن تطلّب تجاوب السرّ مع السؤال البشري الأخير يتمّ اختباره كبيان السرّ لنفسه، جاعلاً نفسه حاضراً في مسيرة الإنسان المجهدة.

(أ) الملاحظة الأولى هي في أمر المعرفة. لقد عبّر الإنسان دوماً في تاريخه عن قناعته بإمكانية إرشاده إلى معرفة الـ "آخر"، المجهول، كون هذا الأخير يحاول أن ينجلي بالضبط في الواقع. يلاحظ جوليان ريس (Ries) أن "الإنسان يعرف القدسيّ لأن القدسيّ ينجلي. لأن البيروفانية هي انجلاء القدسيّ، بمعنى أنه فعلٌ سرّيّ ينجلي فيه الـ "آخر" في غرض أو كائن في العالم الدنيويّ هذا".^{٢٨}

ولهذا تعدّدت بالنسبة للإنسان الأماكن المثلّية و"المقدّسة" لتلك التجليات.^{٢٩}

وفي تاريخ الإنسان تمّ اعتبار الأسطورة والرمز كأهمّ أداتين معرفيتين وجاليتين للسرّ، كوسيلتين لتخطّي الفاني والغوص في ما هو مقدّر له البقاء. ويلاحظ إليادي أنّه "بالنسبة للعالم القديم كانت الأسطورة حقيقةً لأنها تروي تجلّي الواقع الحقيقي: القدسيّ".^{٣٠} وحسب تعريف ريس، "الأسطورة

هي قصّة حقيقيّة، مقدّسة ونمّوزجيّة، لها معنّى محدّد وتستوجب تكراراً وهذا ما يولّد التقليد. [...] للأساطير مهمة إيقاظ وعي عالم يختلف عن العالم الدنيويّ والحفاظ عليه، إنه العالم الإلهي".^{٣١} إنّه لمن أنبل الجهود البشرية جهد تخطّي المظهر والظرف لمحاولة الوصول إلى كل ما هو غير قابل للفساد، أصليّ وسريّ في الحياة. "إنّ الرمزيّة الدينيّة الظاهرة في وجود الإنسان الدينيّ وحياته لها مهمّة الوحي. [...] الرموز الدينيّة التي تُلامس بُنية الحياة تكشف حياة تتجاوز البعد الطبيعيّ والإنساني".^{٣٢}

(ب) أمّا الملاحظة الثانية، وهي متضمّنة في الأولى، فهي أن الإنسان اعترف دومًا بأنّه، وبالإضافة إلى حاجته إلى وسيط من الواقع الكونيّ والطبيعيّ لعلاقته بالإلهيّ، هو بحاجة دائمة أيضًا إلى وساطة غيره من البشر.^{٣٣} مثالٌ بارز هو ظاهرة قديمة في الديانة الشامانيّة الصينيّة، ألا وهي ظاهرة الوو (Wu). كانت لديهم خاصيّة الدخول في "علاقة شخصيّة مع الآلهة والأرواح".^{٣٤} إنّه لمؤثر الشّعُر الذي يصف لقاء الإله إذ تقول امرأة من الوو:

"باندفاع كبير يهبط إلهي. آه، ها هوذا!

كله نورٌ وبهاء، واضحٌ ودون حدود"

وبعد احتفال الضيافة، وبعدما ذهب الإله واختفى عن أنظارها، ها هي حسرتها:

"كبيرّة هي الرغبةُ بالإله،

عميقٌ تأوّهي،

مُنقبضٌ قلبي ومتعبٌ من الحزن".^{٣٥}

في انتظار الوحي هذا نلاحظ قلقاً واضطراباً ناتجاً عن الإدراك بان هذا اللقاء يُعيد علاقة مفقودة. "في كل تاريخ الصين نجد ما يمكن تسميته بالحنين إلى الفردوس، أي الرغبة في إعادة بناء "حالة بدائية" بواسطة النشوة: تلك المتمثلة بالوحدة/الشمولية الأصلية (huen-tuen) أو الزمن الذي كان من الممكن فيه العلاقة المباشرة بالآلهة".^{٣٦}

لقد شهد تاريخ البشرية بالطبع حالات أخرى متعددة لهذه التخصص بالقدسي، أو بالأحرى لتفويض أناسٍ أناساً آخرين أمرَ علاقتهم بالإلهي. هناك تجلٍ سياسيٍّ بحث للظاهرة. لدينا مثال عن ذلك من التبت. "كان دور الملك أساسياً في الديانة التقليدية. وكانت طبيعة الملك الإلهية تظهر في "بهائه" وقدراته السحرية: كان الملوك الأوائل يبقون على الأرض خلال النهار، أمّا في الليل فيعودون إلى السماء. لم يعرفوا الموت ولكنهم، وفي لحظة معينة، كانوا يصعدون نهائياً إلى السماء على جبلٍ سحريٍّ (اسمه "مو" أو "دمو") [...]. ولهذا الحبل في الفكر الديني التبتيّ [...] مهمة كونية - ألا وهي وصل الأرض بالسماء كما لو أنه محور العالم".^{٣٧}

(ج) وفي نطاق ديانات الإغريق نجد أنّها ذات دلالة عن العمق شبه المربك للرغبة البشرية في الوحي تلك الخبرة الديونيسية (نسبة إلى ديونيسوس ابن الإله زفس) البعيدة عن الأمل في العلاقة مع الإلهي.^{٣٨}

من جهة أخرى، في عصر الإمبراطورية الرومانية، "عصرٌ يرتعب من جبروت المصير"، تزدّد باستمرار في الكتابات الشعبية الغامضة شهادة عن أنّ حضور الإله يستجيب لعطش الإنسانية العميق للمعرفة والسيطرة على الطبيعة من أجل حياة أفضل: "وبما أنّ الأمر يتعلق باكتشاف شبكة من التعاطف والتنافر تُخفيها الطبيعة، فكيف يُمكن ولوج هذا السرّ إذا لم يوح به إله؟"^{٣٩}

(د) إنّ ما يجمع مؤسّسي الأديان هو اليقين بأنهم يحملون وحيًا جوهريًا من إله.

يقول إليادي (Eliade) متحدّثًا عن الديانة الفارسيّة القديمة: "يعلن زرادشت بأنه "تعرّف" على الإله أهورا مازدا "بالفكر"، "كالأول والأخير" (يازنا، ٨ : ٣١)، أي البداية والنهاية". و "ينزل عليه وحي الديانة الجديدة مباشرةً من أهورا مازدا. وفي قبوله للوحي يتبع عمل الرب البدائيّ - اختيار الخير (يازنا ٢ : ٣٢) - و لا يطلب شيئًا البتّة من أتباعه".^{٤٠} "يستنتق زرادشت ربّه [...] وتتعاقب أسئلته حول الخليقة في إيقاعٍ محرّض أكثر فأكثر. ولكنه يودّ أيضًا أن يعرف بأيّ طريقة سوف "تُغمّر نفسه بالفرح عند وصولها إلى الخير" و "كيف نتحرّر من الشرّ".^{٤١} أسئلة أبدية، سيبقى إيقاعها محرّضًا على مدى الزمن: انتظر أمامها الإنسان دومًا الإجابة عليها من الأصل السريّ لكلّ شيء.

تختلف الأجواء في نصوص القرآن، ولكن التأكيد بأنّ الوحي يعطى لإنسان مختار من الله لكي يسمح له ولل بشرية بمعرفته بشكل أفضل والعيش بشكل متجانس والكرامة الإنسانيّة مماثلٌ لكلّ الذين ذكرناهم باختصار. يصف القرآن أشكالَ الوحي: "لا يمكن لله أن يتكلّم مع الإنسان إلّا بالوحي، أو من خلف ستار، أو يبعث رسولاً يكشف للإنسان ما يريد الله وبإذنه أن يكشفه".^{٤٢} تختلف الظروف والإشكال التي من خلالها يصلّ وحي الله هذا إلى مُختّاره.^{٤٣}

نجد أيضًا في خبرة مؤسس الديانة المانويّة، ماني، اليقين بأنه أسّس ديانةً عالميّة عظيمة ، وفق ما كان قد تعلّمه من خلال الوحي الذي نزل عليه بين سنّ ١٢ و ٢٤ من عمره، عندما "نقل إليه ملاكٌ رسائل "ملك فردوس النور" (إله المانويّة الأسمى والطيب)، مُقدّمًا إليه هذا اليقين: "كما أنّ

النهر يصبّ في نهر آخر فيشكّلان تيّارًا قويًّا، هكذا الكتب القديمة انصبت مع كتاباتٍ وشكّلت حكمة عظيمة، لم تعرفها أبدا الأجيال السابقة".^{٤٤} لكنّ وعي المؤسّس هو أنّه عمل شيئًا أتاه من العلي. فيُعبر عنه في حوارٍ عاصف مع ملكه: "عندما يعلن ماني الطابع الإلهي لرسالته، يهتف بهرام: "لماذا نزل هذا الوحي عليك وليس علينا نحن أسياد البلاد؟". لم يملك ماني إلا الإجابة بـ: "لأنّ هذه هي إرادة الله".^{٤٥}

هـ) وأخيرًا نذكرُ اليقين الوحيّ لإيمان الشعب اليهوديّ، الجِدّ مألوف في العالم المسيحيّ.

"لا يقدّم الإيمان اليهودي ذاته كإعلانٍ لتسامي الله النقيّ من خلال مجموعة من النظريّات اللاهوتيّة المجرّدة، ولا أيضًا - كما يحدث بالعكس في الديانة المحليّة الكنعانيّة - كاحتفالٍ حضوريّ للإله يقتصر على الآليّات البيولوجيّة للخصوبة الجنسيّة ودورة الفصول. إنّ "الإيمان" اليهوديّ كما هو مؤكّد في ثنية الاشتراع ٩-٢٦:٤ وسفر التكوين ١٣-٢٤:١ والمزمور ١٣٦ يختار التاريخ والزمن كمجالٍ مميّز يُظهر الله فيه نفسه. وهو لذلك يبقى ساميًّا ولكنّه يأتمن حضوره وكلمته للواقع الأكثر تعلّقًا بالإنسان، أي التاريخ".^{٤٦}

هذا المفهوم لإله يُظهر نفسه في التاريخ يستدعي استبصار إمكانيّة استمرار العلاقة بين الله والإنسان التي يجسّدها "الحدث" كحافزٍ وتعليم. "كان الإيمان اليهوديّ دومًا عبارة عن علاقة مع حدث، بشهادة ذاتيّة إلهيّة في التاريخ".^{٤٧}

تجرّ هذه الاستمراريّة وراءها أحداثٍ شعبٍ بأكمله. "نحن نعي هذا الشعب مدفوعًا، مُحَرَّكًا، مُشكَّلًا، مبدلًا، مُفْنَى ومَبْعُوًّا باستمرارٍ بفضل كلمة الله المُعلّنة دومًا من جديد".^{٤٨}

يمكننا القول، مع أحد علماء ودارسي العهد القديم: "في المحصلة، إنَّ يهوه والإنسان هما دائماً على علاقة، لكن هذه العلاقة سابقة وتُهيئُ للوحي الحقيقي: إنَّها تبدو شرطاً للقاء الكامل".^{٤٩}

يمكننا القول مع أحد دارسي العهد القديم: "خلاصة القول إنَّ يهوه والإنسان هما دائماً على علاقة، ولكنَّ هذه العلاقة هي سابقة ومُهيَّأة للوحي الحقيقي: تبدو العلاقة شرطاً للقاء الكامل".

(٢) أمام زعم لا يمكن تخيله

لقد رأينا في الفصل السابق أنَّ الأديان، في الجهد النبيل العقلانيِّ والأخلاقيِّ والجماليِّ الذي تعبّر عنه هي كلّها حقيقة وإنَّ الإنسان، وبدافع من تطلّبات إنسانيّته، عليه أن يبدل هذا الجهد ويكون له بالتالي ديانة. ثم رأينا أيضاً أن تطلّب وحي هو في أصل المحاولة وهذا ينطبق على مختلف الخبرات الدينيّة.

في الحرّيّة وتعدّد أشكال المحاولات والرسالات، إذا ما كان هناك جُرمٌ تقوم به ديانةٌ ما، فهو قولها: "أنا هي الديانة والطريق الوحيد". هذا هو بالضبط ما تدّعيه المسيحية. سوف يكون جرماً كونه نتاج فرضٍ أخلاقيٍّ لمعتقدنا على الآخرين.

وبالتالي ليس من الظلم سماع طعنٍ أمام تأكيد كهذا: من الظلم ألا نتساءل عن سبب هذا التأكيد، عن سبب هذا الزعم الكبير.

الفصل الثالث

اللغز كواقع في مسار البشرية

إنَّ زَعَمٍ وحيٍّ يُلَخِّصُ وضعَ النفسِ البشريَّةِ في فهمِ العلاقةِ مع الإلهيِّ وتحقيقها حسب تناوبِ يُوضِّحه الرسمُ التالي.

رسم

يمثِّل الخطُّ الأفقيُّ مسارَ التاريخِ البشريِّ، وفوق هذا الخطِّ هناك وجود داهم لـ X: مصير، قدر، quid أساسي، سرّ، "الله". حاولت البشرية في أيِّ لحظة من مسارها التاريخيِّ، بطريقة نظريَّة أو عمليَّة، فهم العلاقة المنسوجة بين واقعها العرَضِيِّ الزائل وملء معناه؛ لقد حاولت تصوُّر وعيش الرابط بين زوالها وبين الأزلي. لنفترض الآن أن لغز X (ذاك الوجود المبهم الداهم وراء الأفق والذي لا يمكن بدونه للعقل أن يكون عقلا، لأنَّ الـ X تأكيدٌ للمعنى الأساسي) يتغلغل في نسيج التاريخ ويدخل في سيلان الزمن والمكان، وبقوَّة معبَّرة غير قابلة للتصوُّر يتجسَّد في "حدثٍ" بيننا. ولكن ما معنى "يتجسَّد" في هذه الفرضيَّة؟ يعني الافتراض

أنَّ X العجيبة قد أصبحت ظاهرة، حدثًا طبيعيًا بالإمكان ملاحظته في المسار التاريخيِّ ومؤثرًا عليه.

هذه الفرضية تتجاوب في هذه الحالة مع تطلُّب الوحي. إنَّه لمن غير المنطقيِّ استثناء إمكانية أن يصل السرُّ الذي يعمل الأشياء إلى التورط في المسار التاريخيِّ والانخراط مباشرةً وشخصيًا مع الإنسان: لقد سبق ورأينا أنَّه من طبيعتنا لا يمكننا وضع حدودٍ للسرِّ.

ولهذا السبب، وأمام إمكانية الحدث ومنطقية الفرضية، ماذا يبقى لنا فعله أمامها؟ الشيء الوحيد الذي يجب فعله هو طرح هذا السؤال: هل حدث أم لا؟

إذا كان الحدث قد وقع فهو الطريق الوحيد، ليس لأنَّ الطرق الأخرى باطلة، بل لأن الله يكون قد خطَّه؛ تاريخيًا يكون السرُّ قد عرض نفسه كحدثٍ لا يُمكن لأحدٍ واقفٍ أمامه بجديَّة وواقعية أن يتهرَّب منه دون أن يُنكرَ دربه بالذات.

يستطيع الإنسان، في قبول الطريق الذي خطَّه الله والسير عليه، أن ينتبه من خلال المقارنة مع الطرق الأخرى بأنَّ هذا الطريق يبدو أكثر إنسانية كخلاصة، وأكثر كمالًا في تقييم العوامل الموجودة. في إتباع ذلك الطريق الفريد، يتوجَّب عليَّ مُسبقًا أن افهم بشكل أفضل الطرق الأخرى كلِّما تعرَّفت عليها، وهكذا اكتسبُ القدرة على جني كل ما هو جيِّد فيها؛ وتكون خبرة مُقيِّمة واسعة عريضة سامية. ستكون خبرة قادرة على احتضان كامل القيم، "كاثوليكية" بمعناها الحرفيِّ: إي جامعة وعالمية. تقول إحدى وثائق المجمع الفاتيكانيِّ الثاني: "فالكنيسة الكاثوليكية لا تزدل شيئًا ممَّا هو حقٌّ ومقدَّس في هذه الديانات. بل تنظر بعين الاحترام والصراحة إلى تلك الطرق، طرق المسلك والحياة، وإلى تلك القواعد والتعاليم التي غالبًا ما

تحمّل شعاعاً من تلك الحقيقة التي تُثير كلّ الناس، بالرغم من أنّها تختلف في كثير من النقاط عن تلك التي تتمسّك بها هي نفسها وتعرضها. [...] فهي تحثُّ أبنائها على أن يعرفوا ويصونوا ويعزّزوا تلك الحُيُور الروحية والأدبية، وتلك القيم الاجتماعية والثقافية الموجودة لدى الديانات الأخرى، وذلك بالحوار والتعاون مع أتباع هذه الديانات بفطنة ومحبة وبشهادتهم للإيمان وللحياة المسيحية^{٥٠}.

وفي حال كان السرّ الوشيك وراء أفق أي خطوة للإنسان قد عبر الحدود ونفذ إلى طريق خطانا، فسنجد أنفسنا أمام تغيير جذريّ يميّز هذه الكيفية "الدينية" عن أية محاولة للإنسان في بناء علاقة مع المجهول: ولكنّ الأخذ بعين الاعتبار جدّيّاً بأنّ تلك الفرضية هي حقيقة، لا ينتقص شيئاً من القدرة التعاطفية نحو أيّ بحث إنسانيّ.

١) قلب النهج الدينيّ رأساً على عقب

في حال كان السرّ قد نفذ إلى وجود الإنسان متحدّثاً إليه بعبارات بشرية، فإنّ العلاقة بين الإنسان والمصير لا تكون عندها مبنية على جهدٍ بشريّ كبناءٍ وتصوّر، ولا على بحثٍ يهدف إلى أمرٍ بعيد، مُبهم، كتوقٍ انتظارٍ شخصٍ غائب. بل سيكون ارتطاماً بحاضر. إذا كان الله قد أظهر في تاريخ البشرية إرادةً ما له وخطّ طريقاً للوصول إليها فإنّ المسألة المركزية للظاهرة الدينية لن تكون عندها محاولة الإنسان "للتظاهر" بأنّه هو الله، وإنّ عبرت تلك المحاولة عن كرامته العظمى: تكمن المسألة كلّها في بادرة فطرية للحرية بأن تقبل أو ترفض. هذا هو الانقلاب. لا يعود أساسياً جهد الذكاء والإرادة البناءة والخيال المتعب والحسّ الأخلاقيّ المعقّد: بل بساطة الاعتراف؛ وموقف يُشبهه من يتعرّف إلى صديق بين الجموع عندما يراه قادماً

فيسلم عليه. تفقد المنهجية الدينية في هذه الفرضية كل خصائصها المقلقة التي تشير بشكل مبهم إلى شيء بعيد، وتتطابق مع دينامية الخبرة، خبرة الحاضر، خبرة لقاء.

تجدر الملاحظة بأن النهج الأول يُؤثر الذكي والمتقف والمحظوظ والقوي بينما يُؤثر النهج الثاني الفقير والإنسان العادي. إن الالتقاء بشخص حاضر هو بدهة سهلة بالنسبة للطفل والبالغ. في الدينامية الوحيية لهذه الفرضية، لن يكون التلميح الأول عن العبقريّة وأخذ المبادرة، بل عن البساطة والحب. الحب الذي يُمثل التعلق الحقيقي الوحيد للإنسان، والتأكيد بأنّ "الآخر" هو من مكونات أنفسنا، وهذا هو اختيار الحرية الأسمى.

في أيّ حال، وفي فرضيات مماثلة، لن يكون التأكيد على وحدة الطريق وما يستتبعه تعبيراً مغروراً، بل طاعة لحدث، لحدث الزمن الحاسم. يبقى هنا مجالا واحداً للهروب: إنكار إمكانية هذا الحدث. جرم كهذا هو ضد أسمى أصناف العقل، أي صنف الإمكانية، كما تكلم الراهب في قصة غراهام غرين في وجه انتشار كره "المفكر الحر" عندما أوضح في كتاب "نهاية المغامرة" عمق التناقض مؤكداً بأنّ القبول بكل الإمكانات بدلا من استثناء إحداها يبدو له أكثر فكراً وحرية.^{٥١}

(٢) فرضية ليست فقط فرضية

لقد رأينا أنّ هذه الفرضية مُمكنة وأنها، إذا ما كانت حقيقية، فسوف تقلب النهج الديني رأساً على عقب؛ يجب أن نُقرّ الآن أنها حدثت واعتُبرت حقيقة في تاريخ الإنسان. البشرى المسيحية تقول: "نعم، هذا قد حدث".
لنتصور الدنيا كسهلٍ واسعٍ يشرع فيه عددٌ هائل من المجموعات البشرية تحت إشراف مهندسين ومعماريين بمشاريع متعددة الأشكال لبناء

جسور مؤلفة من آلاف الأقواس بهدف ربط الأرض بالسما، بين مكان سكنهم الزائل و"نجمة" المصير. والسهل يزدهم بعدد هائل من الورشات ينشط فيها العمل الدؤوب. وفي لحظة معينة يصل رجل وبنظرته يحتضن كل ذلك العمل الكثيف ويصرخ قائلاً: "توقفوا". وكلهم، شيئاً فشيئاً، ابتداءً من أقربهم، يوقفون عملهم وينظرون إليه. فيقول لهم: "أنتم عظماء ونبلاء، وجهدكم سام ولكنّه حزين لأنّه ليس بإمكانكم بناء طريق يربط أرضكم بالسرّ الأساسي. تخلّوا عن مشاريعكم، ضعوا أدواتكم جانباً: لقد رأف بكم المصير، اتبعوني، أنا سأبني الجسر: فعلاً/نا هو المصير".

لنحاول أن نتصوّر ردّة فعل كل الجموع أمام تأكيد مُشابه. سوف يقول المعمارّيون أولاً، وبعدهم مسؤولو الورش وأفضل الحرفيين، لعمّاهم يعفويّة: "لا تُوقفوا العمل، تشجّعوا: لنعاود البناء. ألم تُدركوا بأنّه رجلٌ مجنون؟". "حقاً أنّه مجنون" - سوف يجيب الناس - "من الواضح أنّه مجنون" - معاودين العمل حسب أوامر المسؤولين - بعضهم فقط لا يصرف نظره عنه، لقد تأثروا به في أعماقهم، ولا يُطيعون رؤساءهم كما تفعل المجموعة، بل يقتربون منه ويتبعونه.

حسنًا، ضمن هذه الصيغة الخياليّة يوجد ما حدث في التاريخ، وما زال يحدث.

عند وصولنا إلى هذه النقطة، لا نعود أمام مسألة ذي طابع نظريّ (فلسفيّ أو أخلاقيّ)، بل أمام مسألة تاريخيّة. السؤال الأول الذي يجب علينا طرحه ليس: "أهو منطقيّ أو صحيح ما تقوله البشرى المسيحيّة؟"، بل: "هل حدث فعلاً أم لا؟"، "هل تدخل الله حقاً؟".

رغم أنه ضمن ما قلناه حتى الآن، أودّ ملاحظة اختلاف النهج المطلوب في مواجهة السؤال "الجديد". هذا الاختلاف يُمكن عرضه هكذا.

فاكتشاف وجود quid سريّ، أي إله، يمكن ويجب للإنسان الحصول عليه من خلال إدراكٍ تحليليّ للخبرة التي يعيشها للواقع (وقد رأينا كيف أنّه يوسع التاريخ توثيق أنّ هذا هو ما يحصل عادةً)، بينما المسألة التي نتحدث عنها الآن، بما أنّها حدثٌ تاريخيّ، لا يُمكن التحققّ منها بفكرٍ تحليليّ حول بُنية العلاقة الذاتيّة مع الواقع. أنّه أمرٌ واقع حدث أو لم يحدث في الزمن: إمّا هو موجودٌ أو غير موجود، إمّا يُمكن التحققّ منه أو لا يُمكن. إمّا هو فعلاً حدثٌ انبثق في وجود الإنسان داخل التاريخ ولهذا يتطلّب ملاحظة ما حدّث، أو يبقى مجرد فكرة. أمام هذه الفرضيّة يكون المنهج تسجيلًا تاريخيًا لحدثٍ موضوعي.

إن السؤال: "هل تدخل الله حقًا في التاريخ؟" مُجبرٌ قبل كل شيء إلى الرجوع لذلك الزعم الفريد الذي يُمثّل محتوى رسالة جِدّ محدّدة، ومُجبرٌ أن يُصبح سؤالاً آخر هو: "مَن هو يسوع؟" تبزغ المسيحية كإجابة على هذا السؤال.

٣) مسألة يجب حلّها

يقول دوستوفسكي في رواية "الإخوة كارامازوف": "يقتصر الإيمان على هذه المسألة المُقلقة: هل بإمكان رجل مثقف، أوروبيّ في أيامنا المعاصرة أن يؤمن، أن يؤمن بالوهية ابن الله، يسوع المسيح؟".

على مستوى هذا السؤال تُطرح الآن المسألة الدينيّة: بأيّ حال، بالنسبة لأيّ فرد يصله هذا النبأ، مجرد أن يكون هناك رجلٌ واحد يؤكّد بأنّ "الله قد أصبح إنسانًا" يطرح سؤالاً جذريًا لا يُمكن إلغاؤه على الحياة الدينيّة للبشريّة.

يكتب كيركيغارد في "مذكراته": "إنّ أدنى مظهر للعار على الصعيد الإنسانيّ هو ترك مسألة المسيح دون حلّ. في الحقيقة لقد تمّ

بالكامل نسيان الأمر المسيحي: يَجِبُ عليك. أن تكون المسيحية قد بُلِّغَتْ إليك معناه أنه يَجِبُ عليك أخذ موقف تجاه المسيح. إنَّه، كونه موجوداً، أو كان موجوداً، قرارٌ كلِّ الوجود". هناك بعض النداءات التي، لكونها متجدِّرة في الإنسان، لا يمكنه حذفها ولا كبتها إذا ما أحسَّ بها وتصرَّف كإنسان. إنَّ الإنسان مُجبرٌ على الإجابة بنعم أو لا. وبسبب أنَّ نبأ شخص أعلن: "أنا هو الله" قد وصله، فهو لا يستطيع عدم الاهتمام، ويتوجَّب عليه أن يحاول الوصول إلى الاقتناع بأن النبأ هو إمَّا حقيقيٌّ أو باطل. لا يستطيع الإنسان القبول مستسلماً بأن يجري إلهاؤه عن مسألة من هذا النوع، وبهذا المعنى يستعملُ كيركيغارد كلمة "عار"، حسب معناها الإغريقي skandalon التي تعني عائق.

يشكل عائقاً لإنسانيته ذاك الذي ينحرف في الحال أو يبطئ مع إمكانية تكوين رأي شخصيٍّ حول مسألة المسيح. أودَّ هنا أن ألفت نظركم إلى أنَّه يُمكننا أن نكون مقتنعين بأننا نعيش كمسيحيين، مندمجين في شيء أدعوه "فرقة مسيحية"، دون حلِّ هذه المسألة بشكل حقيقيٍّ بالنسبة للفرد، دون أن يكون قد تحرَّر من ذلك العائق.

هناك أمرٌ لا يمكن تجنُّبه. وبقدر ما يكون محتوى الأمر مهماً، يُصبح تجنُّبه من خلال قدرة الإنسان اللامنطقية والمستديمة على التشتت تشويهاً خطيراً للشخصية البشرية. إذا كان شخصٌ يقود شاحنة في شارع عرضه متران ويجد فجأة الطريق مقطوعة بسبب انهيار صخريٍّ، فلا يمكنه الاستمرار، بل يجب عليه إيجاد حلٍّ. هذا السائق يجد نفسه أمام ما أسماه كيركيغارد في النصِّ المذكور "يجب عليه"، إلزام، مسألة يتعيَّن حلُّها.

حسنًا، إنَّ الأمر المسيحيَّ هو أنَّ محتوى رسالته يعرض نفسه كحدث. وهذا ما لا نستطيع أبدًا التشديد عليه بشكل كافٍ. هناك عدم

أمانة ثقافية غادرة مكّنت، وبسبب التباس وهشاشة المسيحيين أيضًا، من نشر فكرة مُبهمّة عن المسيحية كخطاب أو كعقيدة، ولهذا كأسطورة أو أخلاقيات. كلا: قبل كلّ شيء إنّه حدث، إنّه واقع، إنّه رجل دخل في عداد الرجال.

لكن الأمر يتعلق أيضًا بمعنى آخر للحدث: إنّ مجيء ذلك الرجل هو نبأ نتداوله حتّى يومنا هذا، وحتّى يومنا نُعلنه ونبشّر به كحدث حضور. أن يكون رجل قد أعلن: "أنا هو الله" وأن يُنقل هذا كحدث حاضر هو شيء يتطلّب اتخاذ موقف شخصي بشكل قطعيّ. قد يستخفّ بعضنا بهذا، وقد لا يكثر البعض الآخر: وهذا يدلّ في أي حال على الرغبة في حلّ المسألة بشكل سلمي، وعلى عدم الرغبة في إدراك أنّنا تجاه اقتراح لا يُمكن فيه لأيّ مخيلة بشرية أن تتصوّر شيئًا ما أعظم منه.

وهذا هو السبب الذي غالبًا ما يدفع المجتمع إلى عدم الاهتمام بهذه البشرية، أو يحاول حصره داخل الكنائس وفي الضمائر. ما يزعج هو إدراكُ عظيمة أبعاد المسألة: أن يكون (الله) قد وُجد أو لم يوجد؛ بكلمات أخرى، التحقق أو عدم التحقق بأنّه "كان" أو "لم يكن"، هذا هو القرار الأكثر أهميّة في الوجود. لا خيار آخر يطرحه المجتمع أو يتخيّله الإنسان كأمر مهمّ له هذه القيمة. وهذا يدوّي كالزام، تأكيد المحتوى المسيحيّ يبدو استبدادا. أهو استبدادٌ تبليغ نبأ شيء حدث، مهما كانت عظمتة؟

(٤) مسألة واقع

ينبغي الإدراك بأن القضية تتعلق بمسألة واقع. إنه لمُرّ، من وجهة نظر منطقية، أن يؤرّخ الجميع كل شيء ابتداءً من ميلاد المسيح، ولم يتسأل الكثيرون عن المغزى التاريخيّ لمسألة المسيح. ليست هذه مسألة آراء

وأذواق، وليست مسألة تحليل للنفس الدينيّة. فالبحث عن الحسّ الدينيّ لا يقود إلى معرفة ما إذا كانت المسيحية تنقل لنا نبأ حقيقيّاً أو زائفاً. ولقد تطرّقت إلى هذا الموضوع في كتاب "الحسّ الديني":^{٥٢} النهج يفرضه الموضوع ولا يحدّده الشخص. الحسّ الدينيّ ظاهرةٌ شخصيّة، ولهذا أوضحنا كيف أنّ طريقةً مواجهته - وهي طريقةٌ يتعيّن دوماً تجديدها - هي التأمل في أنفسنا. أما إذا كان المسيح قد قال أو لم يقلّ إنّ الله، وإذا كان هو الله أو لم يكن، وإذا كان يُدركنا حتى اليوم، فهي مسألة تاريخيّة، ولهذا يجب أن يكون النهج متجانساً، ويتجانس مع ثقل المسألة.

وبهذا الخصوص أودّ أن أبديّ ملاحظة. نسمع أحياناً تعابير مثل: "المسيحيّون لديهم المسيح، كما لدى البوذيين بوذا، ولدى المسلمين محمّد". إنه واضحٌ للعيان بأن عبارات كهذه هي ثمرة جهل. ولكن ينبغي أخذها بعين الاعتبار باقتضاب.

البشرى المسيحية هي: رجلٌ كان يأكل ويمشي ويستهلك بشكل طبيعيّ وجوده كإنسان قد قال: "أنا هو مصيركم"، "أنا الذي صُنِعَ به كلّ الكون". إنها، بموضوعيّة، الحالة الوحيدة في التاريخ التي لم يدّع رجلٌ الألوهية بشكلٍ عامّ، بل تماثل جوهريّاً مع الله. من وجهة نظر تاريخ الشعور الدينيّ للبشريّة يتعيّن ملاحظة أنه كلّما عظمت عبقرية الإنسان الدينيّة، كلّما أدرك واختبر بُعدَه عن الله وسمو الله، والتفاوت بين الله والكائن البشريّ. إنّ الخبرة الدينيّة هي بالذات الوعي المُعاش لصِغَرِ الإنسان ولاحصريّة السرّ. يُحكى أنّ القديس فرنسيس الأسيزيّ فُوجئ في غابات فيرنا منبطحاً على الأرض ووجهه منغمسٌ في التراب وهو يكرّر: "مَنْ أنت؟ مَنْ أنا؟"،^{٥٣} مبيّناً بذلك الفرق الشاسع بين القطبين، الإنسان والله، اللذين يخلقان سحر الحسّ الدينيّ. فكلّما زاد عمق هذا الحسّ وبدا كصاعقة تندلع بقوة، مشعة

وحارقة، كلّما شعر الإنسان بفارق القوى بين هذين القطبين. وكلّما زادت العبقرية الدينية عند الإنسان كلما قلّت تجربة تماثله مع الإلهي. قد يستطيع الإنسان أن "يتظاهر" بأنه إله، ولكن يستحيل عليه نظرياً أن يتماثل مع الله. لا يستطيع الإنسان هيكلياً أن يُماثل ما بين جزئيه الواضحة والكلّ، إلا إذا كان مصاباً بمرض ظاهر. إنّ الدينامية العادية للذكاء محظورة عليها هذه التجربة، لأنّ كل تجربة يتعيّن عليها، لكي تكون كذلك، أن تنطلق من مشابهة للواقع، من أمرٍ مُمكن الحدوث، ولكن أن يتصوّر الإنسان نفسه حقاً كالله لا يُشابه الواقع وغير ممكن الحدوث.

الفصل الرابع

كيف نشأت المسألة في التاريخ

هنالك حدثٌ في التاريخ يدّعي بأنه تحقيقُ الفرضية القائلة إنّ السرَّ دخل في مسار التاريخ كعاملٍ من عوامله، كعامل أرضيٍّ، أي إنسانيٍّ. لقد رأينا أنّ العبقرية الدينية هي حقيقةٌ بقدر ما تبتعد عن هذا الادّعاء. نحن الآن أمام ظاهرة دينية مبنية على هذا الادّعاء. نُقارب أولاً كل ما وصلنا كتسجيل للمعطيات؛ وبعدها نواجه مُحتوى هذا الادّعاء عن قُرب.

(١) الحدث كميّار

لقد وصلتنا وثيقةٌ تاريخيةٌ توضح لنا كيف نشأت هذه المسألة لأوّل مرّة، وهي الأناجيل. لقد طرحت طبيعة هذه الوثيقة بعض المشاكل في مجال البحث التاريخي. وقبل أن نتعمّق في حيثيّة تسجيل هذه الأحداث كما وصلتنا، نوّد طرح بعض الملاحظات.

أ) لنبدأ بتوضيح أمرٍ ما "ليست" هي الأناجيل: فهكذا نتحاشى استعمال طريقة غير مُلائمة للموضوع في مقارنته، لأنّه، كما سبق وقلنا، من غير الممكن معرفة موضوع ما إلا من خلال النهج الذي يتطلّبه هذا الموضوع عند مقارنته.^{٥٤}

ليست الأناجيل، كما تمّ توثيق ذلك بشكل مُسهب، "تقارير اختزالية"^{٥٥} عمّا كان يفعله يسوع ويقول، ولا هي تريد أن تكون - ولا يمكنها أن تكون - "تقريراً أو سجلات تاريخية"^{٥٦} عن خطابه.

إليكم كيف حدّدت وثيقة المجمع الفاتيكانيّ الثاني "الوحي الإلهي" ما يخصّ عمل الإنجيليين: "فالرُّسل بعد صعود الربّ نقلوا إلى مستمعيهم أقوال المسيح وأعماله، بذلك الفهم المتكامل الذي توصّلوا إليه عن طريق أحداث المسيح المجيدة التي درّبتهم، ونور روح الحقّ الذي علّمهم. أمّا المؤلّفون القديسون فقد كتبوا الأناجيل الأربعة، واختاروا بعض ما كان يُنقل بغرارة، شفويّاً أو كتابةً، وأوجزوا البعض الآخر أو فسّروه مع مُراعاة ظروف الكنائس، واحتفظوا أخيراً بأسلوب الكرازة بحيث أنّهم أعطونا دوماً عن يسوع ما هو حقّ وصادق".^{٥٧}

وهكذا نكون مُنبّهين بأننا لسنا أمام كلّ الأحداث التي وقعت، ولكن بالتأكيد أمام أحداث قد وقعت، ووصلتنا من ذاكرة شهود مدفوعين بالحاجة الماسّة، وبشعورهم بالواجب، إلى التعريف بأهميّة هذه الأحداث بالنسبة للأفراد والإنسانيّة.

مثلاً، إذا سُرقت منّي سيارّة جديدة كنت قد اشتريتها بعرق جبیني بعد رغبة شديدة، ثمّ تمّ العثور عليها، إليكم طريقتين مختلفتين في معرفة ما حدث. إمّا أن تستدعيني الشرطة إلى مركزها لتعرض عليّ تقرير عن العثور على سيارّة متروكة في شارع معيّن دون إطارات ولوحة تسجيل، وتتطابق أوصافها بالضبط مع الأوصاف التي قدّمتها في شكواي، وإمّا أن اتلقّى مكالمة هاتفية من صديقٍ يقول فيها إنّهُ خلال ركوبه الحافلة لمح سيارتي في شارع فرعيّ لا يعرف اسمه ولكنه يؤكّد أنّ باستطاعته أن يجده. إنّهُ لم يُسهب طبعاً في وصف السيارّة، لكنه أكّد بثقة بأن تلك السيارّة هي

سيّارتي. يجب عندها الذهاب لرؤيتها. إنّ الطريقتين في استقبال الخير منطقيتان وقابلتان للتصديق: تختلف فقط وسيلة التأكد.

ب) إنّنا موجودون إذن أمام وثيقة لها علاقة، كغيرها، بالذاكرة، وبشكل أصيل بما تبتغيه البشري: إنّ شكل هذه الوثيقة يتأتى من هذا القصد. يمكننا استيعاب قيمتها التاريخية بشرط ألا نُنكر ما يميّزها: إنّ ما تودّ سرده البشري هو ذكرى حدث استثنائيّ نقله شخصٌ يعتبرُ تعريفَ الآخرين به حيويًا.^{٥٨}

بعد تأكّدنا من أنّنا لسنا أمام تقرير اختزاليّ ولا أمام محضر ولا أمام رواية كُتبت بدافع القيام بواجب سرد حدثٍ ما، يتعيّن علينا للفهم أن نقفَ أمام المُعطيات كما تبدو: ذاكرة وبشري. يتعيّن مقارنته بشكل شامل وأن نتساءل: "هل له مصداقية؟ هل هو مُقنع؟". وأيُّ نهج آخر يكون نهجًا يتحاشى المُعطيات كما تصلنا اليوم ويطبّقها على موضوع غير موجود أساسًا.^{٥٩}

إن زعم يسوع هو الحدث الوحيد الذي يهّمنا الاقتراب منه، إنه الحدث الوحيد الذي يرغم الذكاء الإنساني ويتطلّب حلا بشكل قاطع. لا يجب أن نحازف بافتقاده بل يتوجب علينا أن نضع أنفسنا في أفضل الشروط لبلوغ اقتناع بهذا الخصوص.^{٦٠}

والاقتناع يولد دائماً من أمر "مُبرهن". ولكن، وكما سنحت لنا الفرصة أن نقول سابقاً^{٦١}، بأنّ برهان الأشياء المهمة في الحياة ليست من نوع رياضيّ أو جدليّ: هذا النوع من البراهين له علاقة بشيء أوجدناه نحن. إنّ البرهان الذي نحن بصدد الحديث عنه يوفره اللقاء الواضح مع واقع، ويوفره الاقتراب من حدث.

يتعيّن عند هذا الحدّ أن نتذكّر أنّ ما من اتصال يمكنه أن يحدث إن لم نكن مستعدّين لأنّ يستحقّنا ذاك الحدث بشموليّته. إنّ الثمن الذي ندفعه إذا ما أردنا تحاشي هذه الشموليّة - في بحثنا عن جزء فقط أو في محاولة إقناع أنفسنا بنوع معيّن من المعطيات فقط - يقودنا حتمًا إلى عدم رؤية أنّ عظمة ذلك الزعم غير العاديّ هي التي تجعل البحث مهمًّا وأنّ تلك العظمة يمكن البحث عنها في شموليّة الحدث فقط. يُلاحظ هانس فون بلتازار بأنّه "إذا اقتطعت منذ البداية أقسام من الإنجيل فلن تعود الظاهرة متكاملة وتصبح غير مفهومة. [...] عندما تُزال الأجزاء الأساسيّة فإنّ ما يبقى سيكون هيكلية هزيلة (كشخص المسيح التاريخيّ عند الباحثين رينان وهارناك وبولتمان) نلاحظ فيها، حتى عن بُعد، الاختلاق المهنيّ ولا يمكننا، على أيّ حال، أن نفسّر كيف أنّ نواة رهيبة كهذه استطاعت أن تصبح شكلًا مكتملًا قويًّا متماسكا كشخص يسوع الأناجيل".^{٦٢}

يتعيّن إذن أن نكون مستعدّين لأنّ يستحقّنا ذاك الحدث بشموليّته، وهذه الشموليّة ليست عبارة عن جرد كامل لعوامله. هذه هي النقطة المركزيّة لوثيقة الجمع الفاتيكانيّ الثاني حول الوحي الإلهيّ والتي يقول فيها لوباك مُعلّقًا: "إنّ موضوع الوحي الآن، وللمجمع أيضًا، هو الله ذاته؛ لكن هذا الإله حيٌّ وتدخّل في تاريخ البشرية، وجعل له فيه شهودًا، وهؤلاء الشهود يُحيلوننا جميعًا إلى الشاهد الأعظم، إلى ذاك الشاهد الحقيقيّ والأمين، ألا وهو كلمته المتجسّد. إنّ موضوع إيمانيّ الأول ليس عبارة عن لائحة حقائق، قابلة للإدراك أو لا [...]". إذا كان هذا الموضوع بالنسبة لي "غير قابل للفهم" بالمعنى الجذريّ للكلمة (وكيف يمكنني أن أرغب ألا يكون كذلك؟)، وإذا كنتُ غير قادر على الإحاطة به كما أفعل مع صنعة فكري، فهذا يتعلّق بكونه [...] عناقًا من "شخص" حيّ. [...] هذا هو

الأمر الأساسي، فالموضوع الموحى به لا يتم إدراكه كمجموعة عبارات [...] إنما يتم الاعتراف بوحده الأصيل كسير المسيح، أي واقع كائن شخصاني وحي^{٦٣}.

إن السرد الذي نحن بصدده هدفه السير في مراحل اللقاء الذي تم مع حامل الزعم الموحى الأكثر روعة في تاريخ البشرية ومع موضوعه. يحذر دو لوباك قائلاً: "ليس بالإمكان الفصل بين المسيح وإنجيله. [...] يحاول بعضهم بين الفينة والأخرى فعل ذلك: يريدون تقسيم ما هو غير قابل للتقسيم. إنها خيانة للإنجيل الواحد الذي هو، كما يقول القديس مرقس في بداية كتابه، البشرى السارة ليسوع المسيح، ابن الله (مر ١، ١) "^{٦٤}. وكما يلاحظ الأب روسولو: "إن المسيحية تأسست على حدث، حدث يسوع المسيح، حياة يسوع الأرضية. والمسيحيون هم أولئك الذين يؤمنون، اليوم أيضاً، بأن المسيح ما زال حياً. هذه هي الخصوصية الأساسية للدين المسيحي^{٦٥}".

إن الحدث هو معيار في متناول الجميع. يُمكن الالتقاء بالحدث، يمكن الارتطام بالحدث، شرط أن نكون في وضع يسمح لنا برؤيته. كيف يمكننا إذن استيعاب حدث يسوع لكي يمكننا بعدها أن نقيم الزعم؟ من خلال البدء في السير وراء الذكرى والبشرى اللتين يحملهما عنه أولئك الذين استحوذ هو عليهم.

٢) تنبّه نهجي

قبل الدخول في صلب رواية أول من التقى بهم، يجب علينا أن نتذكر بعض النقاط المنهجية. إنّ طريقة تعاطينا مع شهادة لقاء رائع كهذا، كاللقاء مع المسيح، هي مسألة تتعلق بملاءمة كل السلوك الفكري أو عدم ملاءمته.

يصف النهج - نعود ونكرّر - عقلانيّة العلاقة مع الموضوع ويُحدّد الدوافع الملائمة التي نقوم بها بالخطوات للتعرفّ إلى الموضوع.^{٦٦}

لقد رأينا سابقاً أنّ الموضوع هنا لا يكمن لا بلائحة عبارات ولا بمصدقيّة أخبار، بل بصُدقيّة شهادة تُخصّ شخصاً حيّاً زعم، هو وحده، أنّه مصير العالم، والسرّ الذي دخل التاريخ لينتمي إليه.

سنستشهد هنا بالاستنتاجين اللذين ذكرناهما بخصوص بلوغ اليقين الوجودي.

أ) مُشاطرة وتعايش

الاستنتاج الأول: أكون مؤهّلاً أكثر لامتلاك يقين عن شخصٍ آخر، بقدر ما أكون مُهتماً بحياته، أي أ بقدر ما أشاطره حياته.

إنّ الانسجام الضروريّ مع الموضوع الذي علينا الوصول إلى معرفته هو وضعيّة حيّة تُبنى مع مرور الزمن، في التعايش. على سبيل المثال، في الإنجيل، لقد فهم بأنه يجب الوثوق بذاك الرجل، مَنْ مشى على خطاه وشاركه حياته، وليس الجَمع الذي ذهب وراءه لكي يطلب الشفاء.

ب) استيعاب الدلائل هو طريق اليقين

الاستنتاج الثاني: كلّما كان أحدهم إنساناً حقّاً، كان بإمكانه أن يصل إلى يقين عن الآخر بدلائل قليلة. هذه هي عبقرية البشر. يُشدّد رُسُولو على هذا في النصّ الجميل التالي: "كلّما كان الذكاء مرناً وعميقاً كفاه دليلٌ بسيط لكي يصل بيقين إلى نتيجة. [...] ولهذا السبب هنالك تقليد لا يقبل الجدال يعود إلى الإنجيل، حيث يمدح الذين هم ليسوا بحاجة لعجائب لكي يؤمنوا. لا يمدحهم أبداً لأنهم آمنوا من دون علة: وإلاّ لكان

هذا مؤسفًا؛ بل يرى فيهم نفوسًا مستنيرة حقًا وقادرة، من خلال أضعف دليل، على كنه الحقيقة الكبيرة".^{٦٧}

حتى هذا الذكاء في أضعف الدلائل - وإن كان متوفرًا للإنسان على مستوى أساسي بشكل طبيعي لكي يبقى على قيد الحياة - هو بحاجة لزمان ومكان لكي يستطيع أن يتطور.

هذه هي الموهبة التي يتطلبها "زعم يسوع" لكي نتمكن من فهمها.

إن تكرار العلامات المتعلقة بشخصه يؤدي بنا إلى الاستنتاج العقلاني بأنه يُمكنني الوثوق به.

إنَّ الإنسان يُمكنه بالفعل الوثوق لأنه يستشعر الدوافع الملائمة لكي يؤمن بآخر ويقبل ما يؤكده. إذا كانت العقلانية الوحيدة بالنسبة للإنسان هي في التبيين المباشر أو التثبت الشخصي، فهو لا يستطيع التقدم أبدًا، لأنه يجب عليه أن يُعيد كلَّ المسيرة منذ البداية، وستكون معرفته محدودة بشكل خطير. يقول تريمونتان "إنَّ يسوع يَحْثُّ دومًا على الذكاء ويحفِّز عليه. إنَّ اللوم الذي يتردَّد دائمًا في أقواله هو: ألا تفهمون، أستم أذكاء؟ ويضيف أيضًا: ألا تؤمنون بعد؟ إنَّ الإيمان الذي يَحْثُّ عليه لا علاقة له بالسذاجة. هذا الإيمان هو بالضبط بلوغ الذكاء حقيقة مُعَيَّنة، والاعتراف بهذه الحقيقة، إنه "نعم" للذكاء المُقْتَنع وليس للاستغناء عن الذكاء [...]. إنَّ الإيمان بالأنجيل هو هذا الاكتشاف، أي استيعاب الحقيقة المطروحة هذه. عندما نُعلِّم صبيًا السباحة، نشرح له بأنه يَفْضَلُ القوانين الطبيعية لا يجدر به أن يخاف، سوف يسبح إن قام ببعض الحركات البسيطة جدًّا. لكن الصبي يخاف، يتصلَّب، ولا يُصَدِّق. يحين الوقت الذي يقوم به بخبرة، أي أنَّ ما قيل له ممكن، فيُصَدِّق ويسبح. لن يُقال، في هذه الحالة، إنَّ الإيمان يُعارض العقل".^{٦٨}

الولد الذي يتعلّم السباحة يجب عليه أن يعرف كيف يتذكّر، في تلك اللحظة الدقيقة الضرورية، أنّ لديه أسباب قويّة لِيُثَقِّق بِمُدْرَبِهِ. قد يأتيه هذا بالفطرة، وقد لا يكون مُدْرَبًا على القيام بذلك.

إنّ ذكاء الإنسان اليوم ليس مُدْرَبًا بالشكل الكافي على مجموعة عمليّات حيويّة يسبب تراكم الأحكام المُسبّقة التي جعلته يتصلّب نوعًا ما. إنّ ذكاءً يعرف الدلائل بهدف الحصول على اليقين الوجوديّ حول شيءٍ أساسيٍّ لوجوده هو ذكاء مفتوحٌ على مصراعيه أكثر من ذاك الذي ينكّر مسبقًا إمكانية فعله .

لهذا يجب تمرين الذكاء على فريدة مقياس جديد.

(٣) نقطة الانطلاق

لقد اختار السرّ أن يدخل في تاريخ الإنسان بقصّة مُشابهة لقصّة أيّ رجل: لقد دخلها إذن بشكلٍ غير محسوس، دون أن يتمكّن أحد من ملاحظته وتسجيله. وفي وقت معيّن أظهر نفسه، ولكلّ من التقى به كانت تلك اللحظة العظيمة في حياته وحياة التاريخ بمجمله.

لِننطلق إذن من تلك النقطة، ليس من دون ذكر كيف أنّه حول إنجيل يوحنا (بما أنّنا سنستخدم صفحة من إنجيله) دارت جدالات وتحاليل علميّة للنصّ لم تستطع مع ذلك المسّ بجلاء الذكرى والبشرى الأصليين اللذين وصلانا.

بدون شكّ "يعتمد إنجيل يوحنا على مكانة تلميذٍ من تلاميذ الربّ، [...] هو عضوٌ بارز في التقليد و"شاهد".^{٦٩} ذاك الشاهد الاستثنائي أراد أن تُذكر في الإنجيل اللحظة التي فرض فيها حضور يسوع نفسه للمرّة الأولى كَتَساؤلٍ عظيم. هنالك صفحة في إنجيل يوحنا دُوِّنت فيها، كما لو أنّها أمرٌ

بالغ الأهمية يُسَجَّل على مُفكِّرة خاصّة، ما نستطيع تسميته اللحظة الأولى،
الهبة الأولى لمسألة المسيح وكيف فرض نفسه في التاريخ.

يسوع، ولغاية العمر الذي بدأ فيه بالتكلّم علناً، كان قد عاش كأبيّ
ولدٍ آخر وكان يُلاحظ بشكل دقيق طقوس شعبه الدينيّة. كان ذائعاً جداً في
ذاك العصر اسم يوحنا المعمدان؛ كان يُحكى عنه كنبّي يفتقر إليه الشعب
اليهوديّ منذ ١٥٠ سنة، حيثُ كانت الظاهرة النبويّة مُلازمة دائماً له. كان
يوحنا المعمدان، أي المُعمّد، قد وضع حدّاً أخيراً ما كان يعيشه الشعب من
جفاف مُقلق. ومن سائر اليهوديّة والجليل كانوا يذهبون ليستمعوا إلى
كلامه.

نقول اليوم بأنّه كان مقصداً للحجاج، وقد ذهبَ يسوع أيضاً
إليه.

لقد قلت سابقاً بأنّ الصفحة التي نُقِلَ فيها هذا الحدث تُشبه كثيراً
دفتر الملاحظات، يحفظ به المرء جملةً، ربّما منقوصة، والملاحظة تختزل أشياء
لامتناهية اعتُبرت بديهية؛ تريد الملاحظة أن تكون إشارة لذاكرة حيّة، لتأثير
مُعاش سابقاً، وليس كما في القصّة الروائيّة حيثُ تُرافق التفاصيل القارئ في
وصفٍ يكون مثاله إعادة خلق استمراريّة حتّى في التفاصيل الدقيقة لكي
يصل إلى تكامل تامّ دون أيّ فراغ. القصّة الروائيّة لها قراء، الملاحظة لها
مستخدمون. الملاحظة موجزة، وعند قراءتها يتخيّل من يستعملها ما لم
يُقال بين جملة وأخرى، وما تتركه نقطة ثابتة للذكرى. إنها ظاهرة الذاكرة.
لا تتمسك الذاكرة بالماضي بحسب تتابع الأحداث غير المنقطع، بل تطبعه
على مراحل. وكلُّ واحدٍ منّا لا يتذكّر من الطفولة نسيجاً غير مُنقطع
لأحداث واضحة في تتابعها، بل أحداثاً بارزة، نقاطاً هامّة، ولكن يُصبح
سهلاً بشكل كافٍ استخراج قصص مُيول ومزاجات وطباع منها. إذا

فكرنا ملياً، ولا حتّى البارحة، تلك البارحة التي تبدو ظاهرياً في مُتناول اليد، تبقى مطبوعةً في ذاكرتنا بحسب الجريان غير المُنقطع لإظاهرة تعبيريّتنا.

والآن، هذه الصفحة التي نحن بِصدّد دراستها نُقل ذكرى رجل حمل في عينيه وقلبه طيلة حياته اللحظة التي أشعّ بها على وجوده حضوراً فقلّبها رأساً على عقب. لقد تمسّكَ لاحقاً بتلك اللحظة بوعي كامل، وحتّى الشيخوخة: ولكن في تلك اللحظة بالتأكيد لم يعِ المِلء والشموليّة اللذين لقيهما. كَشخصين التقيا بشكل عاديّ ومن ثمّ تزوّجا دون أن يتوقّعا حصول ذلك؛ هذا ما يقولانه وهما عجوزان: "أتذكّرين عندما التقينا للمرّة الأولى في الجبل؟ مَنْ كان لِيَتصوّر ما كان سيحدث؟". هكذا هي هذه الصفحة. كلّ نقطة فيها مُمتلئة بِذاك الذي حدث ويبدو وكأنه مُحسومٌ بالنسبة للشخص الذي يكتب^{٧٠}.

ذهب يسوع هو أيضاً لِيستمع إلى يوحنا المعمدان. فَلنفتَرِض أنّه كان حوالي الظُهر وأنّه، كما جرت العادة، كانت هناك مجموعة صغيرة من الأشخاص لا تزال تستمع إليه. وَوَصَلَ يسوع لِيسمع، وفي لحظة مُعيّنة، قام لِيذهب. فصرخ يوحنا، وقد تملّكه روحٌ نبويّ: "ها هو حَمَلُ الله، الذي يَحمل خطايا العالم". كان سامعوه على الأرجح مُعتادين على سماعه يصرخ بِجُمْل غير مفهومة دائماً، ويقبلونها لِـ "أنّه النبي"، ولكنهم لم يُعيروه انتباهاً كبيراً. لكن أحدهم بقي متأثراً من تلك الصرخة والنظرة المُحدّقة بشخص. كانا شخصان قد أتيا من بعيد، صيّادي سَمَك من الجليل، كانا متنبّهين بشدّة، كَقُرويين في المدينة، لِكُلّ ما كان يجري هناك. هؤلاء الاثنان لاحظا إلى مَنْ كان ينظرُ يوحنا المعمدان وهو يتلفّظ بتلك العبارة، فتبعوه. "والتفتَ يسوع، فرآهما يتبعانه، فقالَ لهما: "ماذا تُريدان؟" قالَا له: "رأبّي، أين تُقيم؟" أجاب يسوع وقالَ لهما: "تعالَا وانظُرَا". فَذهبا ونظرا أين يُقيم

وأقاما عنده ذلك اليوم" وبقيا عنده حتّى المساء. "وكانت الساعة نحو الرّابعة بعد الظّهر". إنّها لمُعبرة اللامنطقيّة في ملاحظة كيف أنّ هؤلاء الاثنين بقيا معه حتّى المساء ومن ثمّ، ودون أن يقولوا شيئاً، عادا إلى الساعة التي دخلا بها في علاقةٍ معه: الرّابعة بعد الظّهر.

أحدهما كان يُدعى أندراوس. التقى بأخيه وقال له: "وجدنا المسيح". حسناً: ذهب شخصان إلى بيت شخصٍ مجهول، يُمضيان هناك نصف يوم ولا يُقال لنا ماذا فعلوا ولا ماذا قالوا. ما نعرفه هو أنّ أحدهما، عند عودته إلى منزله، قال لأخيه: "وجدنا المسيح". هناك عفويّة رائعة في هذه الرواية. لقد بقيا هناك حتّى نسيا ساعة خروج رفاقهم للصيد، في المساء، لقد بقيا هناك وتوصّلا إلى ذلك اليقين الذي نقلاه. لم توصّف لنا الخطوات الوسطى. ولكن لا بدّ أنّهما فعلا شيئاً ما: لقد سمعاه يتكلّم، ووجّها إليه بالطبع بعض الأسئلة، ورأياه يتحرّك ويعمل في البيت، يهتمّ بشؤونه، ربّما رأيا أمّه تعدّ الطعام. نحن نستطيع رؤيتهما في الصباح التالي فقط، هناك حيثُ كانت تعود مراكب الصيد، على الشاطئ بانتظار الذين ذهبوا إلى العمل بدونهم، وأوّل ما يقوله أحدهما لأخيه الذي على الزورق: "وجدنا المسيح". يُمكننا تصوّر ردّة الفعل؛ وفعلاً فإنّ أندراوس يقود سمعان إلى يسوع. فلنُفكّر بسمعان، هناك، مُمتلئاً فضوليّة أمام شخص يقول عنه أخوه: "إنّه المسيح". يلحظ بأنّه محطّ أنظار، ويسمع قولاً: "أنت هو سمعان بن يونا، أنت ستُدعى كيفا، أي بطرس الصّخرة". كان من عادة اليهود أن يعطوا لقباً ليشيروا إلى طابع الشخص أو إلى حدث هامّ أو فريد حصل له. وهكذا استحوذ يسوع، بتلك النظرة، على بطرس حتّى أعماق شخصيّته القويّة الصلبة.

في اليوم الثاني، بعد الظّهر، كان الصيادون هناك على الشاطئ يصلحون الشباك. وكان يسوع قد قرّر الذهاب إلى الجليل عبر الطريق المارّ

قرب الشاطئ. ربّما رآه سمعان وأندراوس وقالاً لِّلآخرين: "ها هو، إنه ذاك الذي يمرّ". وقام أحدهم، فيلبّس المندفع كأخيه يعقوب، فوقف وركض إلى أعلى الطريق ليراه عن قرب فقال له يسوع بدالّة: "اتبعني".

إنّهُ تلاحقَ ليقين منقول بصورة طبيعيّة، ويلتقي فيلبّس بنتنائيل وهو أيضاً، كما فعل الآخريّن، يقول: "وجدنا الذي ذكره موسى في الشريعة، والأنبياء في الكتب، وهو يسوعُ ابنُ يوسفَ من النَّاصِرَةِ". نتنائيل هو الأكبر سنّاً، الحكيم ضمن المجموعة، ذاك الذي لا يضطرب أبداً من أيّ شيء. يقول لِفيلبّس: "أمنَ الناصرة يُخرَجُ شيءٌ صالح؟". بالفعل لم يكن للناصرَة سِمعة طيّبة. يرُدّ فيلبّس: "تعالَ وانظُر". ورأى يسوع نتنائيل مُقبلاً إليه، فقال: "هذا إسرائيليّ صميم لا شكّ فيه". وكانت ردّة فعل نتنائيل تَنمُّ عن شبه دفاع غريزيّ: "كيف تكلمني هكذا وأنت لا تعرفني؟". فأجاب يسوع: "رأيتُكَ تحتَ التّينة قبلَ أن يدعوكَ فيلبّس". فَصرخَ نتنائيل: "أنت يا معلّم ابنُ الله، أنت مَلِكُ إسرائيل!"

لِننتبه جيّداً أين هي علامات المصادقيّة، طبيعة ذكرى هذه الصفحة. فالذكرى لا تقول، لا تصف، تفترض كلّ شيء، لا تختار ما يجب أن يدخل التاريخ في خطّة مُنظّمة. إنها تسرد الأحداث مع كلّ الزّخم والنكهة الطبيعيّة لكل ما هو جليّ ومعلوم بالنسبة إلى الروائي، هكذا كما يُمكن أن يقول صديقين لبعضهما البعض: "أتذكّر ذاك اليوم الذي ابتدأنا فيه نعمل معاً؟" وفي هذا الاستدكار لِسنين العمل سوِيّة ولِلصداقة تقود الذاكرة، بينما لو أنّ آلة تصوير سينمائيّة صغيرة كانت قد وُضِعَت في المكتب لكانت ركّزت فقط على كلّ التفاصيل الزمنيّة والمكانيّة. ولكن هذه هي النقطة: لم تكن لَتَنقُلَ وتعلن نفس المحتوى.

إنّ صفحة يوحنا، كما صيغت، تشهد لنا بشيء ساري المفعول منذ
ُذاك الزمن وإلى أن تستمرّ الشمس في البروز على العالم. اليوم وغداً؛ إنها
تشهد لنا بالطريقة العميقة والسهلة التي فهم بها الإنسان، يفهم ويفهمهم،
من هو المسيح. أشخاص يتبعون بفضول ذاك الرجل بدون أن يتصوّروه
أبداً، يبقون معه حتّى المساء، ناسين أن يذهبوا إلى العمل، لقد بقوا متأثرين،
إلى حدّ أنهم نقلوا يقيناً حقيقياً قال هو بنفسه إنّّه جواب على كلّ توقعات
زمنهم. كلّ مُفسّرٍ النبوءات القديمة كانوا يتوافقون بالفعل على القول بأنّه
كانت هذه هي اللحظة التي أشار إليها الأنبياء لمحيي المسيح، خاصّةً
دانيال. كان هناك انتظارٌ مسيحانيّ حيّ ليس فقط بحسب تيار العصور
الوسطى، الذي أعلن بصوت داني، بل أيضاً بحسب دارسين كثيرين، ولقد
تخطّى حدود إسرائيل ليصل إلى العالم الوثنيّ، وذاك الصدى ردّه أيضاً
فيرجيليوس.

ليس هناك تناسب ظاهر بين تلك الطريقة السهلة جدّاً التي اتّبعتها،
بين ذاك الرجل الذي يدعو إلى بيته، ويقين الاثنين: "لقد وجدنا المسيح"،
وهو يقين ينعكس فيما بعد على سمعان وفيلبس وتناثيل. لقد وجدوا
أنفسهم أمام شخصٍ مختلف عن الآخرين. من يتصل به يشعر بأنّه مُنجذب
بشخصيّته الرائعة. ربّما تستطيع الحياة أن تُعطي تفاصيل أكثر، ولكن
الانطباع والإدراك الحسّي الأوّل للاختلاف الفريد يبقى.

وهكذا، في يقين أنهم وجدوا المسيح يبدو كلّ شيء مُختوماً. ولكن
هذه هي فقط نقطة الانطلاق. سنرى الآن في الفصل الثاني من إنجيل يوحنا
ما هو التطوّر الذي سيسلكه هذا اليقين: سنرى بمعنى آخر تابع الإدراك
الحسّي الأوّل.

تعمُّق اليقين بمرور الزمن

لنَرَ الآن كيف تطابق الطابع الرائع للحدث الذي صادفه الرسل،
كانطباع جليّ تحوّل إلى اقتناع.

(١) مسار الاقتناع

استمرَّ يسوع، وبعدَ اللقاءات التي ذكرناها، بالعيش كالأخرين في
بيته، واهتمَّ بشؤونهم، لكن هؤلاء الثلاثة أو الأربعة أشخاص الذين تأثروا به
إلى هذا الحدّ أصبحوا أصدقاءه، وكانوا يذهبون لملاقاته، وكان يصحبهم
للصيد.

يروى الفصل الثاني من إنجيل يوحنا دعوةً إلى عرسٍ. كما كان يتمّ
عادةً، كان المدعوّ يصطحب معه أصدقاءه، وبما أنّ يسوع كان مدعوًّا مع
أمّه إلى ذاك الحفل فقد أحضر معه مجموعة أصدقائه الجدد.

أعجوبة عرس قانا - هذه المعجزة الغريبة التي تحوّل فيها الماء في نهاية
الغداء إلى خمر - هي إحدى الصفحات الأكثر تعبيراً عن مفهوم يسوع
للحياة: أيّاً كان مظهر الوجود، حتّى الأكثر تفاهةً، فهو جديرٌ بالعلاقة معه،
إي جديرٌ أيضاً بتدخله. كلّ نوعٍ من أنواع الأحداث حاسمٌ، أي أنّه
يوحي، وذلك بسبب الميزة المُحدّدة والفريدة لحدث "يسوع"، والذي
تتحقّق أعماله تجاه كلّ ما هو إنسانيّ في أدقّ الأمور الملموسة، في كلّ
نواحي الحياة، مُوحياً هكذا بشكلٍ تصاعديّ كينونته نفسها.

تطرح أعجوبة عرس قانا نفسها في بداية الكشف الذاتي المتصاعد
لِيسوع.^{٧١}

"بحسب العادات اليهودية - يُلاحظ شناكنبورغ -، إذا كانت
العروس في عرسها الأول، كان يدوم العيد أسبوعاً. كانوا يهتمون بأن يتوفر
الخمر بشكل كافٍ، لأنه وبمناسبة العيد كان يُستهلك بكثرة. كان من
العادة تقديم هدايا للعروسين، لا بل كان جائزاً طلبها من المدعوين إلى
الوليمة. لهذا كان مفهوماً ارتباك رب البيت حين نقص الخمر".^{٧٢}

تفطن مريم أم يسوع بانتباه ورهافة حسّ كانت قد اكتسبتها
بدالتهامها مع الابن (لنتذكر بأن عمرها لا يتجاوز عمره بأكثر من ١٥ أو
١٦ سنة)، لهذا الارتباك وتبّلغه إلى يسوع. وهو يتدخل. يختتم الإنجيلي
بعدئذٍ رواية هذا الحدث بالشكل التالي: "وآمن به تلاميذه". تُصيّننا
الدهشة أمام هذه الجملة. ألم نر منذ قليل، في الفصل الماضي، أنّ الرسل
"كانوا قد آمنوا به" سابقاً؟ لكن هذا هو الوصف المثالي والدقيق
سيكولوجياً لإظاهرة مألوفة لنا جميعاً. عندما نلتقي بشخص هامّ لحياتنا،
يكون هناك دوماً وقتٌ في البداية للتعريف عنه؛ هناك شيء ما في داخلنا
تضعه بداية الإقرار الذي لا يُمكن تجنّبه في وضع دقيق: "ها هو"، "ها
هي". ولكن وحده المجال المُعطى لتكرار هذه التجربة يزيد من وزن
الانطباع الوجودي. أي أنّ التعايش فقط يُدخله بشكل أكثر جذرية
وعمقاً فينا، إلى أن يُصبح يقيناً. وطريق "المعرفة" هذه، ستجد في الإنجيل
تأكيدات أخرى كثيرة، أي إنّها سوف تحتاج إلى دعم كبير، لدرجة أنّ
تلك الصيغة "وآمن به تلاميذه" نراها تتكرر مراراً، حتّى النهاية. تلك
المعرفة ستكون اقتناعاً يحدث ببطء ولن تُكذب أية خطوة تالية سابقاتها:
لقد كانوا قد آمنوا في السابق أيضاً. سيأتي من التعايش إثبات لتلك

الفردة، لذلك الاختلاف الذي صَعَقَهُمْ منذ اللحظة الأولى. وهذا التأكد يزداد مع التعايش.^{٧٣}

يُوثِّق الإنجيل إذاً فعل الإيمان كاحتضان لمسار الاقتناع في تكرار مُتوالٍ للاقرارات، والتي يجب إعطاؤها المجال والوقت لكي تحدث. سنجد هنا من جديد، تلك الإشارة إلى النهج الذي ذكرناه في الفصل السابق، مُتجسداً في الشهادة الإنجيلية.^{٧٤} إنها حقيقة واضحة أنّ معرفة موضوع ما يتطلب مكاناً وزماناً، وبصورة أخص لا يُمكن لهذه القاعدة أن ينكرها موضوعٌ يدّعي بأنه فريد. حتّى أولئك الذين كانوا أوّل من لاقوا تلك الفردة كان عليهم أن يتبعوا هذه الطريق.

أ) اكتشاف رجل لا مثيل له

تلك المجموعة الأولى من الرسل تعتاد أكثر فأكثر على مُرافقة يسوع عندما يبدأ الوعظ في القرى والساحات والبيوت.

في يومٍ من الأيام يدعونه ليأكل في بيتٍ يتدافع على مدخله جمعٌ صغيرٌ من المُصغين.^{٧٥} يتأخّر يسوع، كما لو أنّه يستصعب الانفصال عمّن كانوا منتبهين لكلامه. جلسَ في الصفّ الأوّل أصحاب السلطة المحلية: لقد بدأ منذ قليل مساره العلنيّ، لكن أصحاب السلطة كانوا قد بدؤوا يقلقون. وبينما هو يتكلّم يصل إلى هناك بسرعة رجالٌ يحملون مُخلّعات على حصير. إنهم يريدون الوصول إلى يسوع، لكنّ الجمع يعيق تحرّكهم. فيبادرون إلى الالتفاف حول المنزل، ويصعدون بالمريض إلى السطح، ويكشفون جزءاً منه، لكي يفتحوا منفذاً يستطيعون منه إنزاله مباشرةً إلى الداخل، بجانب يسوع. يلتفت يسوع وينظر إليه. لتخيّل كيف كان شعور ذاك الرجل من نظرة يسوع إليه، وسماعه يقول له: "ثق، يا بُنيّ، مغفورةٌ لك خطاياك".

كانت ردّة فعل الوُجّهاء الحاضرين فوريّة: لا أحد يُمكنه أن يغفر الخطايا، إلاّ الله وحده. ولكن يسوع يزيح نظره عن المُخلّع ويجدّق بالمعتّزين سائلًا: "أَيُّمَا أَسْهَلَ؟ أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ وَلَكِي تَعْلَمُوا أَنَّ لِي سُلْطَانًا عَلَى الْأَرْضِ أَنْ أَغْفَرَ الْخَطَايَا"، يقول لِلْمُخْلَعِ: "لَكَ أَقُولُ: قُمْ فَاحْمِلْ فِرَاشَكَ وَاهْجَبْ إِلَى بَيْتِكَ" فقام هذا الأخير وسط هتافات الجَمع المتوقّعة.

لِنُحَاوِلِ الْآنَ أَنْ نُفَكِّرَ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ شَاهَدَتْ لِأَسَايِيعَ وَشُهُورٍ وَسَنِينَ كُلِّ يَوْمٍ أَشْيَاءَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. هَؤُلَاءِ الْأَصْدِقَاءُ الْأَوَّلُونَ، وَكُلٌّ مِنْ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ، شَاهَدُوا يَوْمِيًّا، أَكْثَرَ فَاكْثَرٍ، تِلْكَ الشَّخْصِيَّةُ الْفَرِيدَةُ. إِنَّ مَا يُوَثِّرُ، لَيْسَ فَقَطْ تَكَرُّرَ الْعَجَائِبِ الَّتِي مَلَأَتْ يَوْمَهُ. فَالْأَشْيَاءُ وَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ يَطِيعُونَهُ دُونَ أَيِّ وَسِيلَةٍ "سِحْرِيَّةٍ". إِنَّهُ يَحْصِلُ عَلَى هَذَا مِنْ خِلَالِ التَّحَكُّمِ بِالْوَقْعِ بِشَكْلِ جَدِّ "طَبِيعِي"، كَمَا لَوْ أَنَّه سَيِّدٌ هَذَا الْوَقْعِ. يَلْحَظُ الْإِنْجِيلُ أَنَّهُ كَانَ يَبْدُو فِي الْمَسَاءِ "نَعْبًا مِنْ عَمَلِ الشِّفَاءِ"، كَوْنَهُ قَامَ وَبَدُونَ تَوَقَّفَ بِاسْتِخْدَامِ سُلْطَانِهِ عَلَى الْوَقْعِ الْمَادِّي.

لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْأَمْرُ الْأَكْثَرُ تَأْثِيرًا. وَلَا حَتَّى ذِكَاؤُهُ، الْقَادِرُ عَلَى إِرْبَاكِ وَدَحْضِ مَكْرِ الْفَرِيسِيِّينَ الْمَعْرُوفِ. كَمَا فِي حَدِثِ دَفْعِ الْجِزْيَةِ لِقَيْصَرَ.^{٧٦} كَانَ الْفَرِيسِيُّونَ قَدْ أَخَذُوا يُشْغَلُونَهُ مِنْذُ فَتْرَةٍ بِمُنَاقَشَاتٍ حَادَّةٍ وَمُتَوَاصِلَةٍ، وَيَتَحَدَّثُونَهُ وَيُجَرِّبُونَهُ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ وَهَذِهِ الْمُنَاقَشَاتُ كَانَتْ تَبْدُو أَيْضًا كَأَسْتِعْرَاضٍ لِكُلِّ مَنْ اقْتَرَبَ بِدَافِعِ الْفُضُولِيَّةِ الْبَحْتَةِ.

سَأَلَهُ الْفَرِيسِيُّونَ، وَهُمْ مُصَمِّمُونَ عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ، إِنْ كَانَتْ تَجُوزُ تَأْدِيَةُ الضَّرْبَةِ إِلَى قَيْصَرَ. لَوْ أُعْطِيَ يَسُوعُ جَوَابًا إِيْجَابِيًّا، لَبَدَا خَائِنًا لِشَعْبِهِ، وَلَوْ أُعْطِيَ جَوَابًا سَلْبِيًّا، لَعَرَّضَ نَفْسَهُ لِلِاتِّهَامِ لَدَى الْحَاكِمِ الرُّومَانِيِّ. أَخَذَ يَسُوعُ دِينَارًا وَسَأَلَهُمْ لِمَنْ تَعُودُ الصُّورَةُ الْمَحْفُورَةُ عَلَيْهِ، وَعِنْدَمَا أَجَابُوهُ بِأَنَّهَا

لِقَيْصَرِ أُسْكَنْتَهُمْ قَائِلًا: "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرِ لِقَيْصَرٍ، وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ". وَهَكَذَا كَانَ حَلَّ الْمَعْضَلَةِ مَلَقَى بِشَكْلِ رَائِعٍ وَمُبْهِمٍ عَلَى عَاتِقِ الْحَرِيَّةِ، الَّتِي وُضِعَتْ عَلَى الْحَكِّ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مَتَوَقَّعَةٍ.

كَانَ ذِكَاؤُهُ يُحِيطُ كُلَّ مُحَاوَلَةٍ لِلِإِقْقَاعِ بِهِ. لَقَدْ أَتَوْهُ بَامْرَأَةٍ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي؛^{٧٧} وَسَأَلُوهُ، إِنْ كَانَ يَنْبَغِي، حَسَبَ رَأْيِهِ، تَطْبِيقَ شَرِيعَةِ مُوسَى بِرَجْعِهَا أَمْ لَا.^{٧٨} تَرَكَهُمْ يَسُوعُ يَتَكَلَّمُونَ، مُحَدِّثًا بِهِمْ بِتِلْكَ النِّظَرَةِ الثَّاقِبَةِ الَّتِي تَكْشِفُ كُلَّ مَا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ انْحَنَى وَأَخَذَ يَخْطُ بِإِيدِهِ عِلَامَاتٍ عَلَى التَّرَابِ! كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَقُولُ: "كَلِمَاتُكُمْ هِيَ كَلِمَاتُ مَكْتُوبَةٍ عَلَى التَّرَابِ". اعْتَقَدَ الْمُتَّهَمِينَ أَنَّهُمْ تَغَلَّبُوا عَلَيْهِ وَأَلْحَوْا لِلْحَصُولِ عَلَى إِجَابَةٍ. فَانْتَصَبَ قَائِلًا: "مَنْ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيئَةٍ، فَلْيَرْمِهَا بِحَجَرٍ!". يُمَكِّنُنَا تَحْيِيلُ مَدَى السَّكُوتِ الَّذِي تَتَّبَعُ كَلِمَاتِهِ. اسْتَدَارُوا جَمِيعًا يَبْطِئُ وَذَهَبُوا، بَيْنَمَا تَابِعَ هُوَ خَطَّ عِلَامَاتِهِ الرَّمْزِيَّةِ فِي التَّرَابِ مُنْحَنِيًا، وَالْمَرْأَةُ مُضْطَرِبَةٌ وَمُنْتَصِبَةٌ وَحَدَهَا أَمَامَهُ. ثُمَّ سَأَلَهَا يَسُوعُ: "أَمَّا حَكْمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ؟"، فَأَجَابَتْ: "لَا أَحَدٌ". فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: "وَأَنَا لَا أَحْكُمُ عَلَيْكَ، اذْهَبِي وَلَا تُخْطِئِي بَعْدَ الْآنَ".

وَالْآنَ، كَمَا قُلْنَا، لَا هَذَا الذِّكَاءُ وَلَا هَذِهِ الْجَدَلِيَّةُ الَّتِي لَا تُقْهَرُ كَانَا الْأَمْرَيْنِ الْأَكْثَرِ تَأْثِيرًا وَأَهَمِّيَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الَّذِينَ كَانُوا يُرَافِقُونَهُ دَوْمًا.

لَمْ تَكُنِ الْأَعْجُوبَةُ الْكُبْرَى، الَّتِي أَثَّرَتْ فِي الرُّسُلِ كُلِّ يَوْمٍ، شِفَاءُ الْكَسِيحِ، أَوْ تَطْهِيرُ الْبُرْصِ، أَوْ اسْتِعَادَةُ الْبَصَرِ. الْأَعْجُوبَةُ الْكُبْرَى كَانَتْ تِلْكَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا: كَانَتْ نَظَرَةٌ مُوحِيَةٌ بِإِنْسَانِيَّةٍ لَا يُمَكِّنُ تَحَاشِيَهَا. مَا مِنْ شَيْءٍ يُقْنَعُ الْإِنْسَانُ مِثْلَ النِّظَرَةِ الَّتِي تَسْتَحُودُ عَلَيْهِ وَتَعْرِفُ مَا هِيَ، وَتَكْشِفُ الْإِنْسَانَ أَمَامَ ذَاتِهِ. كَانَ يَسُوعُ يَرَى دَاخِلَ الْإِنْسَانِ، أَمَامَهُ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِ أَحَدٍ التَّوَارِي، وَلَا لَعَمَقِ الضَّمِيرِ أَسْرَارًا. كَمَا فِي حَالَةِ الْمَرْأَةِ السَّامِرِيَّةِ^{٧٩} الَّتِي، وَفِي حَوَارٍ عِنْدَ الْبَيْتِ، سَمِعَتْهُ يُخْبِرُهَا عَنْ حَيَاتِهَا، وَهَذَا بِالضَّبْطِ مَا نَقَلْتَهُ إِلَى

مُواطنيها لِتشهد على عظمة ذاك الرجل: "لقد قالَ لي كُلُّ ما فعلتُ!". حدثَ نفس الشيء مع مَتَّى العَشَّار،^{٨٠} الذي اعتُبرَ عُلَنِيًّا خاطئًا لأنَّه كان في خدمة السلطة الاقتصاديَّة الرومانيَّة. قال له يسوع ببساطة وهو يمرّ: "اتبعني". ومَتَّى، الذي عُرِفَ واستُحوذ عليه و قُبِلَ، تركَ كلَّ شيء وتبعه. حدثَ نفس الشيء مع زَكََّا، رئيس العَشَّارين والرجل المكروه في كلِّ أريحا.^{٨١} كان يسوع يمرّ في الطريق، مُحاطًا بِجَمع غفير، وزَكََّا، كونه قصير القامة، يصعد فوق الشجرة، وهو يشعر بالفضول، لكي يراه. ولَمَّا وصلَ يسوع تحت تلك الشجرة توقّف وحدّق إليه وناداه: "زَكََّا!", ثم أضاف: "انزل سريعًا، لِأني سأقيمَ اليومَ في بيتك". ماذا حلَّ بزَكََّا؟ ما الذي جعله يركض ببهجة؟ هل هي مشاريع لاستثمار ثرواته الكثيرة، أم الرغبة بإعادة الظلم الذي قام به أضعافًا، أم وهب نصف أمواله لِلفقراء؟ ما الذي هزّه وغيره؟ لقد نفدت إليه بكلِّ بساطة وتقبَّلته نظرة عَرفته وأحبته كما هو. إنّ القدرة على استيعاب قلب الإنسان هي المعجزة الكُبرى، والأكثر إقناعًا.^{٨٢}

ب) السلطان والطيبة

إنَّه لمن الصعب أن يكون شخصٌ ذو سلطان طيِّبًا. ولكن شهود يسوع استطاعوا أن يروا فيه تلك النظرة التي ليست فقط سلطويَّة، عجيبه، ذكيَّة، مُستميعة، بل أيضًا طيِّبة. يبدو من المُستحيل أن تكمنَ سلطةٌ عظيمة إلى هذا الحدِّ داخل أفقٍ طيِّبة عميقة، ويبدو من الصعب أن يكونَ الذكاء الحادُّ بسيطًا وإيجابيًا كعاطفة الطفل الفطريَّة والمستعدَّة! إنَّها لجميلة قراءة الإنجيل متتبعين آثار الإشارات التي ذكرناها، والتفاصيل الدقيقة التي تُظهر قدرة حنان يسوع وتضامنه المتعاطف مع الإنسانِيّ.

هذا ما جرى في مدينةٍ حيثُ صادف يسوع موكبًا جنائزيًا وعلم أنَّ الميت هو ابنٌ وحيدٌ لأمٍّ أرملة.^{٨٣} فُحرَّكه حالاً ألم المرأة فيقالُ لها: "لا تَبْكِي يا امرأة". إنَّ بادرته الأولى كانت فعلَ حنان، وبعدها سوف يُعيدُ ابنها حيًّا. لم تُطلَب منه لا المعجزة ولا بادرة التعاطف العميق. بنفس الطريقة كان هو من أخذ المبادرة في حدث المرأة الحدياء منذ سنين طويلة، لدرجة لم تُعد معها قادرة على الانتصاب.^{٨٤} كان يسوع يُعلِّم في المَجْمَع: ورآها، فدعاها إلى قُربه وشفأها.

هناك روايات مُتعدِّدة في الإنجيل تخبرنا عن اهتمامه بالأطفال، عن قدرته على التعاطي معهم.^{٨٥} يقول مرقس الإنجيلي: "وقدَّموا إليه أطفالاً ليباركهم"، وهو لا يكتفي بركة عابرة، بل يحملهم بين ذراعيه، وينفعل على مَنْ يُريد منعهم من التعلُّق حوله ثمَّ يباركهم، موصيًّا الجميع، لكي يتمكنوا من الدخول إلى ملكوت السماوات، أن يتمثلوا بالأطفال في التعلُّق الإيجابي بالواقع.

وهكذا، وفي رواية مُشابهة،^{٨٦} يخبرنا متى الإنجيلي أنَّ يسوع أجلس يقربه طفلاً وأقامه في وسط المجموعة، في محطَّ الأنظار، ونَبَّه الجميع ألاَّ يَجْرؤُ أحدٌ على إيدائه أبداً، أو إيداء أيٍّ واحدٍ من هؤلاء الصغار. لم يكن يسوع يتكلَّم عن الأذى الجسدي، الذي ربَّما يمتنع عنه الكثيرون بالفطرة، بل عن التشكيك الأخلاقي، وعن أذى حرِّيَّة الضمير، التي ليس من السهل شفاؤها، والتي يهتمُّ بها يسوع بانتباه مُحبٍّ، لأنه سوف يقول فيما بعد، "إنَّ أباكم السماوي لا يُريد أن يَضِلَّ أحدٌ من هؤلاء الصغار".

إنَّ اندفاعه هو اندفاعٌ مُحيٍّ، نحو كلِّ ما هو قيِّم بالنسبة للإنساني. بعد قيامه بمعجزة كان لها وقع كبير لأنها جرت يوم السبت،^{٨٧} انصرف، ولكن تبعه كثيرون، وذكر الإنجيل بأنَّه "شفَّى جميع مرضاهم"، أي أنَّه نظَرَ

إليهم جميعاً، فَهَمَّهم جميعاً، أخذهم جميعاً على مِحْمَلِ الجِدِّ. ويُلاحظ متى الإنجيلي: "لَيْتَمَ ما قالَ النبيُّ أشعيا: قصبةٌ مرضوضةٌ لا يكسِر، وشُعلةٌ ذابِلةٌ لا يُطفئ. يثابِرُ حتَّى تنتصرَ إرادتي".

يتقبَّل يسوع من الإنسان ما يستطيع هذا الأخير تقديمه له، ولا يضع حواجز من أية طبيعة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، أمام استقباله. كما في الحدث الذي يرويهِ لوقا^{٨٨} عن الغداء في بيت الفريسي، حيثُ دَخَلَتْ بشكلٍ مُفاجئٍ عاهرةٌ معروفة، وهي بالطبع لم تكن مدعوَّة، وأحاطت يسوع باهتمامها، مُثيرةً استياءَ ربِّ البيت الذي بدأ يتساءل إلى أي مدى يُمكنه القول إنَّ يسوع كان نبياً، بحيث أنه قبل الطيب وبادرات التحبُّب لامرأةٍ مثلها. ردَّ فعل يسوع كان سريعاً فقد بيَّنَ لسمعان الفريسي بأنه قَبِلَ قبلاّت ودموع المرأة كعلامةٍ لإيمان به تشهد له من خلالها، مُتحدِّيةً التثرثرات والتعليقات، بخلاف سمعان الذي كان بإمكانه أن يُقدِّم له كَضيف ماءً لغسل رجليه المُعَبَّرَتَيْن وقُبلةً صداقة، لكنّه لم يفعل هذا: "خطاياها الكثيرة مغفورةٌ لها، لأنَّها أَحَبَّت كثيراً".

وهكذا ينبغي التذكير بالتأثير حتَّى الدموع الذي أبداه يسوع بِمناسبة موت الصديق أليعازر، كان تأثراً يدلّ على تضامُنٍ حميميٍّ مع القلب البشريِّ وهمومه.^{٨٩} "في السير الحزين صوب قبر صديقه تأثّر أيضاً يسوع بِظُلْمَةِ مصير الموت. [...] إنَّ الإشارة المُقتضبة إلى أنَّ يسوع دَمَعَتْ عيناه هي تنبؤٌ بشكلٍ مُعتمٍ بالصلاة الواثقة إلى الآب [...] إنَّه مُتَّحِدٌ مع البشر ومُنْفَتَحٌ على مآسيهم".^{٩٠}

و"غصَّ" يسوع ذاك المساء على مُرتفع جبل الزيتون، أمام روعة الهيكل عند الغروب، مُتنبِّئاً بِخَراب مدينته.^{٩١}

٢) بزوغ سؤال وظهور مُفاجئ لليقين

لنستمرّ في تحيُّل نوع التأكّد الذي أعطته الأيام للذين عاشوا قرب يسوع يوميًّا. يبدو يسوع في كلّ الظروف كائنًا أسمى من كلّ آخر، فيه أمرٌ، "سرٌّ"، لأنه لم يلقوا أبدًا حكمةً مماثلة، تأثيرًا مماثلاً، سلطانًا مماثلاً، وطبيّةً مماثلة. هذا الانطباع يُصبح، كما قلنا سابقًا، دقيقًا أكثر فأكثر فقط مع الذين يلتزمون في عيش مستمرّ معه: التلاميذ.

ولكنّ فرادة ذاك الرجل كانت كبيرةً لدرجة أنّها تطرح سؤالاً عفوياً وذا مفارقة: "مَن هو؟". إنّهُ ذو مفارقة لأنّهم كانوا يعرفون جيّدًا أصل يسوع ومعلوماتٍ شخصيّةٍ عنه وعن عائلته وأهله. بزغ هذا السؤال أوّلاً بين أصدقائه ومن ثمّ، وبعدَ وقتٍ طويل، بين أعدائه أيضًا، الذين كانت لديهم، هم أيضًا، معلومات كثيرة عنه. هذا السؤال يثبت على أنّه لا يُمكن الكلام عن ماهيّة الفعلية وحدنا. يُمكننا فقط الاستنتاج أنّه مُختلف عن أيّ شخصٍ آخر، أنّه يستحقّ كمال الثقة، وأنّ من يسير وراءه يختبر ملء حياة لا مثيل لها.^{٩٢}

وهكذا يسألونه من هو. وعندما يجيب يؤمن أصدقاؤه بكلامه بسبب وضوح العلامات التي لا جدل فيها والتي تفرض الثقة؛ ولكن الأعداء لا يقبلون ذلك الجواب ويُقرّرون التخلّص منه.

في الفصل السادس من إنجيل يوحنا نجد سردًا للحظات دراميّة ورائعة تُعبّر عن هذه الديناميّة.^{٩٣}

وجد يسوع، الذي كان مُعتادًا على الابتعاد للصلاة من وقتٍ لآخر، نفسه يومًا وقد تبعه جمعٌ كبيرٌ ولمدّة طويلة، جمعٌ كان ليجوع بعد قليل. لقد تأثّر لرؤيتهم فأشبعهم بشكلٍ عجائبيّ. وعلى أثر هذه الأعجوبة وصل حماس الجموع إلى ذروته لدرجة أنّهم أرادوا أن ينصبوه ملكًا عليهم، كما

يقول الإنجيل، لأنَّ العقليَّة السائدة آنذاك كانت تُماهي المسيح بِمَلِكٍ، بِمَلِكٍ أعظم من داوود، كان سَيَقْضِي على أعداء شعب إسرائيل ويمنحه المكانة التي يستحقُّها في العالم. ولكن كان هناك أيضًا، على أيِّ حال، تيارٌ يُدعى "فقراء الله"، كانوا يندرون الطوعية لأسرار الله؛ لم يكونوا يشعرون بارتياح في تلك العقليَّة السائدة وكانوا يُشدِّدون على الطابع السريِّ لمجيء المسيح. بدا يسوع في ذاك الوقت موافقًا على إرادة الشعب بأن يكون له مَلِكٌ ذو سلطان، كما بدا لهم أنَّه كذلك. ولكنه تهرَّب بعدئذٍ، فأخذ مركبًا وذهب إلى الضفَّة الأخرى من البحيرة. وفي اليوم التالي، وكان يومَ سبت، ذهب كعادته إلى المَجْمَع، وعندما هَزَّ الخادم لِفاقة الكتابات المُقدَّسة لكي يلفت انتباه مَنْ يُريد التعليق عليها، ترشَّح يسوع لهذا الدور، كما في مرَّات أُخرى، لأنَّه كان يُقدِّم جديده من داخل حياة شعبه الاجتماعية والدينيَّة. ففتح اللفافة وقرأ الفقرة عن المَنِّ في الصحراء، التي صلاها موسى إلى الله لأنَّ الشعب كان يتذمَّر لِخوفه من الموت جوعًا في الصحراء، فأرسلَ الله لهم ذاك الندى الغريب الذي كان يُشبه الخبز. لَفَّ يسوع مُجدِّدًا الورقة، وقال: "آبائكم أكلوا المَنِّ في البرِّيَّة وماتوا، ولكن مَنْ يتغذَّى من كلمتي لن يموت أبدًا". بهت الناس أمام هذه التأكيدات ، رغم أنَّهم كانوا مُنجذِبين. لقد قال شيئًا من هذا القبيل لِلمرأة السامريَّة التي التقاها قرب البئر: إذا شرب أحدٌ من الماء التي يُعطيها هو فلنَّ يَعْطِشَ أبدًا. وبينما كان يتكلَّم في المَجْمَع، فُتِح الباب ودخلت مجموعة من الناس رافقته في اليوم السابق كانت تبحث عنه لشغفها به. في تلك اللحظة تأثَّر يسوع بشكل عميق وفُجائيٍّ، فترأت له وتجسَّدت فكرته الأكثر عبقرية في حياته البشريَّة. إذ قال لهم: "أنتم تطلبوني لأنَّكم أَكلْتُم الخُبْزَ وشبِعْتُم، ولكنِّي سأُعْطِيكُمْ جسدي ليؤْكَلَ ودمي ليُشْرَب". فدوَّت في ذاك المَجْمَع عبارة لا يُمكن البقاء أمامها هادئين

حتّى وإن قيلَ: "إنها مُفارقة". فباشِر أسياد العقليّة الشعبيّة والسياسيّون والأساتذة وصحافيّو ذاك الزمن، أي الكُتّاب والفريسيّين، بالقول إنّ يسوع مجنون - "إنّ أسلوب الحديث هذا لا يُفهم" - و بدأت المهمّة تنتقل شيئاً فشيئاً إلى الجميع، لأنّ الجمعَ الذي كان شغوفاً به قبل ذلك بقليل أصبح مُهيئاً لأن يسوقه أصحاب النفوذ إلى التشكيك به. ولكنّ عندما رأى يسوع، وهو ردّة فعل الناس ألح قائلاً: "الحقّ أقول لكم: إن لم تأكلوا من جسدي لن تدخلوا ملكوت السماوات". عندها أمست المهمّة صحباً، وأضحى الحكم المكرّر عن عدم عقلائيّة هذه الكلمات وجنون يسوع على شفاه الجميع. وأخرج الفريسيّون الجمعَ يبطء من المجمع، إلى أن بقي يسوع وحده مع المجموعة الصغيرة الأكثر تعلّقاً به. لنضع أنفسنا في لحظة التوتّر تلك. كان الصمتُ عظيماً. فبادر يسوع إلى إزالته قائلاً: "ألا تُريدون أنتم أيضاً أن تذهبوا؟". وهنا أطلق بطرس بتوقّده جملةً تختصر كلّ خبرة يقينهم: "يا ربّ، نحن أيضاً لا نفهم ما تقول، ولكن إن تركناك، فإلى من نذهب؟ أنت وحدك لديك كلمات تُفسّر، وتُعطي معنى للحياة".

٣ حالة يقين أخلاقيّ

إنّ جملة بطرس هي من الناحية النفسيّة تطبيقيٌّ للملاحظة التي ذكرناها حول اليقين الوجوديّ أو الأخلاقيّ. ذاك السلوك هو بالفعل جدّ عقلائيّ. فعلى أساس العيش المشترك مع فرادة شخص يسوع وتصرفاته كان لا بُدّ لتلك المجموعة من الوثوق بكلامه، وإلاّ لأنكروا أمراً واضحاً أكثر إقناعاً من رؤية شيء بأمّ أعينهم: "إن لم أوّمن بهذا الرجل، لا يُمكنني أن أوّمن بشيء". إنّ التكرار المتواصل لشعور الفرادة هذا، والذي حقّقه العيش

المشترك، قد قادهم إلى حُكمٍ ذي مصداقية عقلانية عظيمة في وثوقهم به. ومع الوقت اكتسبوا عن هذا الرجل يقيناً لا يُضاهى.

بالطبع، لم يكن بإمكان بروز تلك الفريدة بين الجمع الذي كان يذهب ليراه بشكلٍ فضوليٍّ أو انتهازيّ ثمّ كان يغادر دون مواجهة ما مَسَّ قلبه، لم يكن بإمكانه إعطاء أيّ حُكمٍ جدير. إنّ الحكم يتطلّب مواجهة الخبرة مُضمَّنةً فترة "دوامها". فبدون تقدير هذا العيش المشترك يبقى الموضوع الواقعيّ غير قابلٍ للمعرفة، فاليقين الأخلاقيّ، المتولّد من استعداد مطلق ومُخلص في الزمن، هو مهدٌ لوجود عقلائيّ.

لهذا فإنّ يسوع، ولكي يردّ على السؤال الذي طرحه الأصدقاء^{٩٤} والأعداء^{٩٥}: "مَنْ تكون أنت؟"، انتظرَ إلى أن يجعل الزمنُ التلاميذ متأكّدين من تعلّقهم به، والأعداء مُتَعَتِّين في مُعَادَاتِهِمْ. أي أنّ يسوع كشف سرّه عندما استقرّ كلّ الناس نهائياً على الاعتراف أو عدم الاعتراف به. إنّ كشفه النهائيّ لذاته أبان أيضاً "خفايا قلوبٍ كثيرة"، كما تنبأ سمعان الشيخ^{٩٦}: إنّ إعلانَه النهائيّ عن ذاته أكّد أنّ الذين آمنوا به كانوا مساكين بالروح؛ وقدّم آخر وأقوى ذريعة للذين قرّروا أن يرفضوه سلفاً في قلوبهم. "طوبى للمساكين بالروح"^{٩٧} وإن لم تعودوا كالأطفال، لن تدخلوا ملكوت السموات".^{٩٨}

الفصل السادس

نهج المسيح التربويّ في كشفه لذاته

لقد حاولنا حتّى الآن تحديد الطريقة السيكلوجيّة واللحظة التي طرحت فيها الوثائق الإنجيليّة مسألة "يسوع". لقد كان تصرّف يسوع فريداً لدرجة أنّ جلاء أجوائه العائليّة، وسيرته الشخصية لم يُعد يصلح للتعريف به. وهكذا برز ذلك السؤال: "مَن يكون هذا؟". لنُعد الى هذا الحدث: إنّ أوّل مَن طرح هذا السؤال كان يعرفه جيّداً ويُعاشره ويُرافقه إلى بيته، كان صديقاً له. وبزوغ ذاك السؤال في تلك الإلفة الإنسانيّة هو الذي جعلها مسألة غريبة. وكان صدى تساؤل التلاميذ "مَن يكون هذا؟" يتردّد على أفواه خصوم يسوع في آخر حياته، حين كانوا هم أيضاً مُجبرين بسبب الأحداث على أن يسألوا: "حتّى متى نُبقينا حائرين؟ قل لنا من أين أتيت، من أنت؟"^{٩٩}. إنه نفس سؤال التلاميذ ولكن من زاوية أخرى: عدائيّة، غاضبة، بينما كان سؤال التلاميذ نابعاً من دهشة.

يُمكن تخيل قصة صغيرة، شبيهة بعض الشيء، تُحدّد مصدر التساؤل الكبير. لنُتصوّر قرية في الجبل قبل عدّة عقود. هناك درب جبليّ واحد يصلها بالبلدة الكبرى الموجودة في أسفل الوادي. ليس هناك طبيب مقيم، ولكن هناك مجلس بلديّ ورئيسه. كلهم يعتاشون من الأعراس، بعض الدجاج والأبقار، دونما اتّصال بالعالم. إنّها قرية مُغلقة على نفسها، مُتخلّفة. وفي البيت الوحيد الجميل الموجود في القرية أتت عائلة من المدينة لتُقيم فيه: زوجان مُحترمان وطفليهما. إنّهم مهذبون جدّاً، ولكن سكّان القرية جميعهم

يتراجعون أمامهم ويسترقّون النظر عبر فتّحات النوافذ حين يمرون، ويتحاشون محادثتهم بأيّ موضوع عندما يلتقون بهم في حانوت القرية الوحيد. لا يُحييهم أحد. وفي يومٍ من الأيام أُصيب أحد سكّان القرية إصابة خطيرة. وكانت الزوجة طيبة فقامت بكلّ ما في وسعها حتّى شفّي تمامًا. وهكذا بدأ الجليد يذوب شيئًا فشيئًا، وببطء شديد، تولّد تقاربٌ فعليّ وليس صورياً. والزوج أيضًا يضع نفسه في خدمة الجميع عند الحاجة: موقدة تنكسر، جهاز آليّ يلزمه تصليح... إنّ ذاك السيّد الآتي من المدينة يعرف دومًا كيف يتدبّر الأمر. "قد يكون مهندسًا"، يتهامس أهل القرية. وكان يذهب دومًا مساءً إلى مقهى القرية الوحيد حيثُ يلعب الرجال الورق تغطّيهم غمامة من الدُخان. في بادئ الأمر، كان يجلس ويحدّق بهم صامتًا، ثمّ سأل ببعض الحرج إن كان باستطاعته اللّعب معهم، واكتشف أهل القرية أنّه لاعبٌ مُمتاز أيضًا. في النهاية، وبعد بضعة أسابيع، أضحت تلك العائلة أكثر عائلة محبوبة في القرية. وذات يومٍ أحدٍ، بينما كانوا يلعبون الورق، توقّف الزوج لكي يروي عن سفره إلى "أرض النار" وكانوا كلّهم يصغون إليه والورق في أيديهم والغلايين في أفواههم، لأنّه كان يتكلّم بشكلٍ جذاب، كان يعرف أشياء كثيرة. وفي لحظة مُعيّنة، نزع أكبرهم سنًا الغليون من فمه، ووضع ورق اللعب جانبًا وقال: "أصغ، عليك أن تستجيب إلى فضولنا. كثيرون منّا يقولون إنّك مهندس، وآخرون يقولون إنّك عالم، وآخرون غيرهم أشياء أخرى. أنت من تكون؟ كيف يُمكنك أن تكون ماهرًا في كلّ شيء، وأن تعرف أشياء كثيرة؟" عندها قال: "يا أصدقائي، بما أنّه أصبحت الآن بيننا علاقة ثقة يُمكنني أن أقوله لكم. ولكن يجب ألا تخونوني، لأنّ وضعي ولأسباب عدّة دقيقٌ أمام القانون، وإذا علموا بوجودي هنا فسوف يلقون القبض عليّ فورًا. أنا ملك البرتغال المنفي". لا يتبادر إلى ذهن أحدٍ في

المقهي أدنى شكّ بذلك الجواب: كان واضحاً أنّ الأجوبة المتعلقة بشخصيته والتي حاولوا أن يكتشفوها هم كانت أقلّ شرحاً بكثير ممّا أعلنه هو عن نفسه. إنّ جوابه غير المتوقّع كان يتلاءم ونوعية شخصه، يتلاءم والوضوح الذي ينبعث منه، والذي هو أكبر بكثير من تكهّناتهم.

والآن، لم يُعطِ المسيح فوراً جواباً مُكتملاً على السؤال الذي كان يتولّد في قلب الناس الذين كانوا يتبعونه، واعتادوا على سماع كلامه، وعلى تصرّفه، وعلى قدرته في التأثير على البشر والأشياء وسلطته عليهم. لو قام بذلك لتجنّب الموت على الصليب بكلّ تأكيد؛ لم يكن ليُقتل لأنهم كانوا سيُعتبرونه مجرّد مجنون. بالفعل، إنّ جواب كالذي أعطاه كان خارجاً بالمطلق عن إمكانيّة إدراك أولئك الناس وقُدّرتهم على الفهم. لكان بدا ضرباً من الجنون أكثر ممّا هو تجديف.

ولهذا فإنّ يسوع استعمل أسلوباً تربوياً ذكياً في إعلان ذاته. وقام بذلك بشكلٍ بطيء لكي يخلق في الآخرين نموّاً تدريجياً في الاستيعاب، بواسطة إجراءات آيلة إلى الوصول، في تجانسٍ ما، إلى الاقتناع.

على أيّ حال، لا تتحقّق في الطبيعة أيّ خطوة من خطوات الحياة إلاّ بمراحلٍ مُتناهية الصغر. إنّ التربية الفضلى هي التي يحصل فيها التطوّر دون أن يشعر مَنْ يُواجهه بالتغيير. كلّما قلّ الصدام كان النموّ عادياً أكثر. هل تنمو معدةٌ بشكلٍ صحّي إذا خضعت يومياً لأزمة عسر هضم؟ وهكذا فإنّ ما لا نحصل عليه بواسطة التطوّر لا يتمّ استيعابه.

والتعريف أيضاً يجب أن يصوغ اكتساباً حاصلاً، فإن حدث العكس كان ذلك فرضاً لنموذج معيّن.

وهكذا، لو عرّف يسوع عن طبيعته الإلهيّة بسرعة وبشكلٍ واضح لسبّب في داخل أيّ إنسان ردّة فعل تُجرّده من كلّ إمكانيّة ثقة. كان اليهود

مُشدِّدين كثيرًا في آرائهم التوحيدية وما كانوا ليتحمَّلوا تأكيدًا يَمَسُّ فكرتهم الطاهرة عن الله دونما تحضير مُلائم.

لقد أتبع يسوع إذاً خطًا تربويًا ترجم فيه في البداية وبعبارات ضمنية وملموسة تلك الفكرة التي عبَّر عنها في النهاية بشكلٍ عليّ. إنّ الشكل الملموس (أي الفكرة التي تتجسّد) والضميّ (أي ما يجعل الآخرين يفهمون دون التعريف التجريديّ) هما الخطّ التربويّ الأكثر طبيعيّة وفاعليّة. لم يكن ولا حتّى للتلاميذ الأقرب إمكانيّة فهم بُعدِ الجواب الآنيّ والمباشر على سؤالهم. بالفعل، إنّ ما سيقوله يسوع عن ذاته سوف يفرض نفسه فقط بفضل النطاق الصوريّ الذي حدّده شخصه.

كما سبق وقلنا، لقد كان العيش المشترك ضروريًا لكي يُضيء ذاك النطاق بدلائل كاشفة. مَنْ كان يذهب لِسَماع يسوع بشكلٍ فضوليّ، أو للسُّلوى، أو لجني فائدة ما من العجائب، أي بشكلٍ عامٍّ مَنْ كان يتعامل معه بشكلٍ عرضيّ لم يكن يستطيع أن يمتلك إدراك تلك العلامات القادرة على إقناعه بالالتزام بكلمة الربّ. بالفعل، يُلاحظ غوارديني قائلاً: "إنّ تبيان الألوهيّة الذي يتجلّى في وجود يسوع الحيّ، ليس بمظاهر قويّة وأعمال عظيمة بل في تواصل، وفي سُمُو هادئ فوق حدود الإمكانيّات البشريّة، وفي عظمة وسعة ندركهما في بادئ الأمر كأمر طبيعيّ مُفيد، كحرية تبدو طبيعيّة، كإنسانيّة هي بكلّ بساطة رهيبة - يُعبّر عنها جميعًا في اسم "ابن الإنسان" الرائع، الذي كان يدعو نفسه به بكلّ طيبة خاطر -، إنّ تبيان الألوهيّة هذا ينتهي بإظهار نفسه ببساطة كأعجوبة [...] إنها خطوة ساكنة تسمو فوق الحدود المرسومة للإمكانيّات البشريّة ولكنها خارقة أكثر من ثبوت الشمس واهتزاز الأرض بكثير!"^{١٠٠}

(١) الخطوط الأساسية للنهج التربويّ التّبيانيّ

أ) المعلّم الذي يتوجّب اتّباعه

قبل كلّ شيء يطلب يسوع أن نتبعه. والطرق الأولى التي قدّم بها يسوع نفسه كانت هكذا مفهومة من الناس ومقبولة. إنّها تنطوي على أمر أعظم بكثير، لكنّ الناس لا ينتبهون له. عندما قال يسوع لأندراوس ويوحنا وسمعان: "تعالوا معي"، وجّه إليهم دعوةً كان يُمكنهم فهمها جيّداً. لنُحاول الآن أن نتخيّل أنفسنا بعد ثلاثين سنة من تلك اللحظة الأولى، حينما كان التلاميذ مُنتشرين في كافّة أرجاء العالم المعروف حينها وأصبحوا صانعي واقع جديد كُليّاً. عند تفكيرهم بـماضيهم، كم كان كبيراً المعنى الذي اكتسبته تلك الكلمة الأولى التي سمعوها: "اتبعني!". ولكن في اللحظة التي سمعوها فيها، لم يكن باستطاعتهم استيعاب مضمون وعمق هذه الكلمة. لقد قمتُ سابقاً بمقارنة مع خبرةٍ عاديةٍ للناس. يلتقي شخصٌ ما صدفةً بآخر يكتسب بعدها معنىً حاسماً في حياته: فإذا فكّر بعدَ عشرين أو ثلاثين سنة بتلك المناسبة الأولى، كم سيكون متأثراً بفهم معنى لحظة معيّنة في وجوده، بمعرفة مضمون لحظة اللقاء، وهذا المضمون سوف يبرزه التاريخ شيئاً فشيئاً ويجعله الزمنُ جليّاً أكثر!

ب) ضرورة التجرّد

ومع مرور الوقت ازداد مطلب يسوع. إنّ الدعوة لاتباعه لا تتماثل فقط مع الاستعداد للاعتراف به كصالح، جدير بالثقة، بل هي مُرتبطة بضرورة "خسارة الذات" ^{١٠١}. يبدو هذا بديهياً بصورة ما: لكي نتبع شخصاً آخر، ينبغي ترك موقفنا، "ذواتنا". وهكذا فإنّه يطلب من التلاميذ أن يتبعوه حتّى ولو توجّب عليهم أن ينفصلوا عمّا يملكون، كالحياة العائليّة أو

الممتلكات. لقد انطوى ذلك على "غربة" ما، لكن ليس بشكلٍ مُبالغٍ فيها. لقد كان في ذلك الزمان العديد من "المُعلّمين" (كما في بعض مجموعات الأسينيين، الذين كانوا ينزلون في الصحراء، أو يُقيمون في أطراف المدينة) وكان تلاميذهم يتركون كلَّ ما يملكون. لكنَّ المعنى العميق لهذا التخلّي - التخلّي عن "الذات" كمُعيار - سيتعيّن عليه فيما بعد أن يظهر جليًّا في نفس كلِّ مَنْ تبعه.

ج) أمام الجميع

لكنَّ يسوع لم يكن يطلب فقط أن يتبعوه منفصلين عمّا يملكون، بل أن يكونوا "خاصّةً" أمام المجتمع. إنه يطلب أن يتبعه الإنسان بشكلٍ خارجيّ أيضًا، اجتماعيّ (شهادة)، ويربط بهذا العمل قيمة الإنسان نفسها، أي الخلاص. "مَنْ اعترفَ بي أمام الناس، أَعترفُ به أمام أبي الذي في السماوات. وَمَنْ أنكرني أمام الناس، أنكره أمام أبي الذي في السماوات".^{١٠٦} على أيِّ حال، ليست هناك علاقة مُتكاملة وحقيقيّة إن لم يكن لها القوّة لأن تُثمر اجتماعيًّا. مثلاً، إذا كانت لفتاة علاقةٌ بِشابٍّ منذ زمن بعيد، وقالت له في وقتٍ مُعيّن، ربّما أيضًا بسبب إلحاح الأب أو الأم: "تعالَ إلى منزلي، دعهم يتعرّفون إليك"، ويجيبها الشابُّ مُراوغاً: "لا، لِننتظر"، ويتردّد أيضًا في إعلان علاقته بها أمام الأصدقاء، فإنّها ستشعرُ نتيجة ذلك وعن حقٍّ بعدم الأمان والانزعاج. في الواقع، إنّ أيّ عاطفة أو علاقة ليس بمقدورها أن تُواجه أنظار المجتمع، وأن تؤكّد ذاتها أمام كلِّ الآخرين، حتّى تلك اللحظة لا يُمكننا القول إنّ تلك العاطفة أو العلاقة هما بالتأكيد حقيقتان. ولهذا فإنَّ الربَّ يُعبّر عن مسار الإلحاح ذلك: اتّباعه، اتّباعه حتّى التمكن من ترك كلِّ ما نعتبره خاصّتنا؛ والبقاء معه أمام الجميع، وإلاّ فلا يكون الانتماء له

كاملاً حتّى ولو انفصلنا عن كلّ شيء. لنُعِدْ إلى مثل الشاب: قد يُهمل كلّ اهتماماته وعلاقاته العائليّة أيضاً لكي يبقى إلى جانب فتاته، لكن هذا لن يكون بالنسبة إليها علامة ضمان للعلاقة. وفي الوقت نفسه، بالفعل، قد لا يرغب الشاب بإعلان تلك العلاقة في المجتمع، في حين أنّ علامة الحقيقة القصوى للعاطفة الإنسانيّة هي "أمام المجتمع" و"أمام الجميع".

٢) من أجل اسمه: مركز الحرية

تشكّل المراحل التي وصفناها المظهر الأوّل لعلاقات يسوع مع خاصّته. يُمكننا الكلام عن خطوة تالية يُلحّ فيه يسوع مُجدّداً ويدفع بِطليبه إلى أعماق القلب.

إنّ هذه الخطوة هي لحظة مُعدّة لتوليد انطباع قويّ لدى من يتبعه عن قُرب. يبدأ يسوع بإلحاح باستعمال صيغة "من أجل اسمي". تتلاحق هكذا، شيئاً فشيئاً، العناصر التي اعتبرناها سابقاً أساسيّة لتحديد هويّة ما، فتتجلى هويّة جديدة، وجه مُختلف، ولهذا فكلّ عملٍ صالحٍ نقوم به يكون صالحاً ليس لأننا نشعر أو نحكم عليه بأنّه كذلك، بل لأننا نقوم به من أجله. "من أجل اسمي". ولكن فوق كلّ شيء يجب الأخذ بعين الاعتبار بأنّه، في عملنا "من أجل اسمه"، قد نتعرّض للإقصاء من المجتمع، ولخطر الوقوع في تضاربٍ مع العقليّة الرائجة.

في الفصل العاشر من إنجيل متّى، عندما أرسل يسوع الاثنا عشر لِيُبشّروا في القرى، أعطاهم تعليمات تُعبّر جيّداً عن هذه الخطوة الثانية في أسلوبه التربويّ. "وَمَنْ لَا يَقْبَلُكُمْ وَلَا يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ، فَاخْرُجُوا مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ أَوْ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَانْفُضُوا غُبَارَ أَرْجُلِكُمْ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَرْضَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ سَيَكُونُ مَصِيرُهَا فِي يَوْمِ الدِّينِ أَخَفَّ وَطْأَةً مِنْ مَصِيرِ تِلْكَ

المدينة. ها أنا أرسلكم كالخراف بين الذئاب. فكونوا حُكماء كالحيات،
وودعاء كالحمّام. احذروا النَّاس فَإِنَّهُمْ سَيُسَلِّمُونَكُمْ إِلَى الْمَجَالِسِ، وَفِي
مَجَامِعِهِمْ يَجْلِدُونَكُمْ. وتُساقون إلى الولاية والمُلوك مِن أَجْلِي، شهادةً لَهُمْ
وَلِلْأُمَمِ [...] وَسَيُسَلِّمُ الْأَخُ أَخَاهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَالْأَبُ ابْنَهُ، وَيَتَمَرَّدُ الْأَوْلَادُ
عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ. وَيُغَضِّكُم جَمِيعُ النَّاسِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي [...]. ليسَ
تلميذٌ أَفْضَلَ مِنْ مُعَلِّمِهِ، وَلَا عَبْدٌ مِنْ سَيِّدِهِ. حَسَبُ التَّلْمِيزِ أَنْ يَصِيرَ مِثْلَ
مُعَلِّمِهِ، وَالْعَبْدِ مِثْلَ سَيِّدِهِ. فَإِنْ كَانَ سَيِّدُ الْبَيْتِ قَدْ سَمَّوهُ بَعْلَ زَبُولٍ، فَكَمْ
بِالْآخَرِ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ [...] مَا أَقُولُهُ لَكُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلُهُ فِي النُّورِ. وَمَا
تَسْمَعُونَهُ هَمْسًا فِي الْأُذُنِ نَادُوا بِهِ عَلَى السُّطُوحِ". ١٠٣

والآن، فَإِنَّ المظهر الأساسي، والأكثر تأثيراً إذا ما حَدَّثْنَا بِهِ جَيِّدًا، فِي
صِغَةِ "مَنْ أَجَلَ اسْمِهِ" لَيْسَ وَصْفُ الْعَدَاوَةِ الَّتِي قَدْ يُلَاقِيهَا أَتْبَاعُ يَسُوعَ، رَغْمَ
أَنَّهَا وَاقِعِيَّةٌ وَذَاتُ أَهْمِيَّةٍ كَبْرَى لِمَنْ كَانَ يَصْغِي إِلَيْهِ، بَلِ الْعَمَلُ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ
ذَلِكَ الْوَصْفُ: إِذْ أَنَّ يَسُوعَ يَضَعُ شَخْصَهُ رَوِيدًا رَوِيدًا فِي مَرْكَزِ عَوَاطِفِ
وَحَرِيَّةِ الْإِنْسَانِ. وَيُصْبِحُ هَذَا الْأَمْرُ لَاسَعًا عِنْدَمَا يَقَارَنُ مَعَ عَوَاطِفِ الْإِنْسَانِ
الْحَمِيمَةِ.

"وَفِيمَا يَسُوعُ يُكَلِّمُ الْجُمُوعَ، إِذَا أُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ قَدْ وَقَفُوا فِي الْخَارِجِ
يَطْلُبُونَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ. فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: "هَا إِنَّ أُمَّكَ وَإِخْوَتَكَ وَاقِفُونَ فِي
الْخَارِجِ يَطْلُبُونَ أَنْ يُكَلِّمُوكَ". فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لِمُكَلِّمِهِ: "مَنْ هِيَ أُمِّي
وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي؟" وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى تَلَامِيذِهِ وَقَالَ: "هَؤُلَاءِ هُمْ أُمِّي
وَإِخْوَتِي! لِأَنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِمَشِئَةِ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي
وَأُمِّي!" ١٠٤

إِنَّهُ يَضَعُ شَخْصَهُ كَبَدِيلٍ لِلْمَشَاعِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةُ "بَدِيلٍ"
خَاطِئَةً، إِذْ أَنَّهَا تُبَرِّرُ فَقَطِ الْوَقْعَ الْأَوَّلَ مَعَ تَصَرُّفِ يَسُوعَ هَذَا. يَجِبُ أَنْ

نقول: إنَّه يضع شخصه في قلب المشاعر الطبيعيَّة نفسها، إنَّه يضع نفسه ويحقِّق كجذرها الحقيقيِّ. "لا تَظُنُّوا أَنِّي جئتُ لأُلقيَ على الأرضِ سَلامًا، ما جئتُ لأُلقيَ سَلامًا بل سَيفًا. جئتُ لأُفرِّقَ بينَ الابنِ وأبيه، والبنتِ وأُمِّها، والكَنَّةِ وحَماتِها. ويكونُ أعداءُ الإنسانِ أهلُ بيته. مَنْ أَحَبَّ أباهُ أو أُمَّهُ أكثرَ مِنِّي فلا يَستَحِقُّني. وَمَنْ أَحَبَّ ابنًا أو ابنةً أكثرَ مِنِّي فلا يَستَحِقُّني. [...] مَنْ حَفِظَ حَياتَهُ يَخرسُها، وَمَنْ خسرَ حَياتَهُ مِن أَجلي يَحفَظُها".^{١٠٥}

إنَّ حَريَّةَ الإنسانِ تَتحقِّقُ في خِبرةِ العَلاقاتِ مع ما يَخصُّه، أكثرَ بِكثيرٍ ممَّا تَتحقِّقُ في علاقتهِ المباشرةِ مع نفسه. إنَّ الإنسانَ يَقبلُ راضياً أن يَفقِدَ ذاتَه مِن أن يَفقِدَ الشَّخصَ الحبيبَ؛ بالفعل، إنَّ حَريَّتهِ تُحَفَظُ في علاقةِ التَمَلُّكِ أو التَفضيلِ. وهكُذا فإنَّ يَيسوعَ يضعُ نفسه في مَركِزِ هذهِ العَلاقاتِ، كما لو أنَّه القلبُ الذي يولِّدها ويدونه لا حَياةَ لها.

وهنا تَكمُنُ نَقطَةُ انطِلاقِ العداوةِ تَجاهه. فطالما يدَّعي يَيسوعُ بأنَّه "مَعلِّمٌ" ويَطلُبُ اتِّباعه، يُمكنُ للمرءِ أن يَعرِّفَ به ويتبعه أو لا، فإنَّ هُناكَ بَعدٌ مَجالاً لِلامُبالاةِ، ولكنَ عندما يَتوضَّحُ طَلبه كَماطلَبُ لِلدخولِ في مَجالِ حَريَّتِنَا، حينها إمَّا أن نَقبله، ويُصِبحَ حَبًّا، أو نَرفضه، وتُصِبحُ مُناهضةً. تُحدِّدُ القِصَّةُ الِتي تَخيِّلُناها سابِقا بِدَقَّةٍ، وبشَكلٍ تشبيهيٍّ أَيْضًا، المُعاداةِ الِتي تنشأُ تَجاهَ من يمارِسُ بِشَكلٍ من الأشكالِ مَركِزيَّةٍ إدِّعاءِ ما. ففي يومٍ من الأيَّامِ، وبعدَ أن فرضَ "مَلِكُ البَرَتغالِ" مودَّتَه على القرويين، وصلت سيارَةُ الشَركةِ إلى القَريَةِ، واقتادوه. لَقد خائنهُ أحدهم. ولكنَ مَنْ خانَه؟ خانَه رَئيسُ البَلديَّةِ. ولكنَ كيف؟ لم يحَظَ رَئيسُ البَلديَّةِ بِاحترامٍ وتَبحُّيلٍ كما حَظيَ في الشَهرِ الذي أَقامَ فيه ذاكَ الرَّجُلُ! ومع ذلكَ فإنَّ رَئيسَ البَلديَّةِ كانَ يَشرعُ، وما كانَ ليرضى بِذلكَ، بأنَّ مَركِزَ القَريَةِ لم يَعدُ هو، لَقد تَحقَّقَ من أنَّه قد وُضِعَ جانِبًا كَمرجعيَّةٍ وسَيِّدِ القَريَةِ.

لقد تولدت آليّة من هذا القبيل فيما يتعلّق بِرَدّات الفعل تجاه يسوع. فبسبب أسلوبه في تقديم ذاته بدأت تتولّد عداواتٌ تجاهه، أي عندما بدأ بإظهار حضوره على أنّه مطلبٌ يُعطي الحياة معنًى حازماً، وسلطةً حاسمة في نطاق حريّة البشر.

يقول رومانو غوارديني أن تقوم عقيدةٌ ما بشرح الحياة يُمكنه أن يُثير الموافقة أو الرفض،^{١٠٦} ولكنه أمرٌ مُغايرٌ تماماً أن يزعم شخص إنسانيّ أنّه يمتلك أهميّة مُطلقة في حياتنا. ولكي نعرّف بهذا الزّعم، يجب أن يُنكرَ مَنْ يُصغي ذاته، وأن يُضحّيَ باستقلاليّة معياره، بشكلٍ رهف كما يحدث فقط في الحبّ. إذا رُفِضَ إنكار الذات هذا، استيقظت عداوة جذريّة عميقة سوف تحاول بأيّ طريقة أن تُبرّر نفسها.

سيعمّق الرسل خيارهم في هذه الخطوة الثانية بالضبط، كما سيستعد الآخرون في الوقت نفسه عن يسوع. يقول تريمونتان: "إذا ما درسنا حالة يسوع الناصريّ، رأينا أنّ المقاومة التي لاقاها ناتجة عن أنّ يسوع، بأعماله وكلامه، يُعلّم عقيدةً تصدّم وتقلب رأساً على عقب العادات المكتسبة، والتصورات المكتسبة، والأفكار المُكوّنة سلفاً. لقد ثار الذين ينقلون هذه الأفكار ويحافظون عليها في وجه معلّم التجديد هذا. إنّهُ شخصٌ لا يُطاق بالنسبة إليهم. كان لا يُطاق وهو كذلك في يومنا هذا وسوف يكون كذلك دوماً."^{١٠٧}

ولكن يبقى أنّ التمييز الأساسيّ مع المسيح أو ضده يكمن في الزّعم غير المدرك لشخصه، في حادثة "طبيعته" المُطلقة، في الجواب الذي لا يُمكن تصوّره على سؤال "مَنْ يكون هو": هذه هي الركيزة الأساسيّة لِخطوة نوعيّة في إدراك الذات وفي صورة الحياة.

٣) زمن المساواة

يُواجه يسوع بشكلٍ خاصٍّ في خطوةٍ ثالثة، وإن ضمناً، الجواب على ذلك السؤال: "مَنْ أَنْتَ؟"

قالت لي مرّةً أستاذة تعليم مسيحي من الكنيسة الفالديّة: "لم يقل المسيح أبداً في الإنجيل: "أنا هو الله"؛ بل يقول دوماً: "أنا هو ابن الله". فأجبتها: "إن وجدتُ في الإنجيل أنَّ المسيح قد قال: "أنا هو الأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس" لقلتُ مباشرةً بأنه زائف لا محالة". وسيكون زائفاً، لأنه وهو اليهودي، المولود في ذاك العصر، وبما أنه ينتمي إلى تلك الطبقة الاجتماعيّة، لم يكن ليستطع التكلّم إلاّ بعقليّة رجل ذاك العصر وتلك الطبقة الاجتماعيّة. لا يُمكننا تخيّل سماعه يتكلّم بدهاء رجل يونانيّ من القرن الرابع، ولا حسب المتطلبات الفكرية التي تُميز الإنسان المعاصر.

لم يكن بإمكان اليهودي حتّى التلفّظ بكلمة الله، وإلاّ لدنّسه. إنّ اسم الله، ويُشدّد الفريسيّون على هذا، كان يُلفظُ بواسطة التلغيز. فالله، في الواقع، كان يُعرّف عنه بواسطة كلمته، بواسطة تاريخ الشعب، أي من خلال النصوص، في التوراة كتاريخ أمة، وفي الآباء الأقدمين. لقد كانت التلغيزات التي استعملها يهود ذلك الزمان يُشيروا بها إلى الإله: "الشرعية، الأنبياء وموسى" أو "الآباء"، أو "الأقدمين". أي أولئك الذين تمّ الاعتراف بهم كوسطاء، أداة لصوت الله، لدرجة أنّ ما كانوا يقولونه كان صوت وكلمة الله ذاتها. كلّ ما حصل في حياتهم كانت لفتات من الله وعلامات منه تعالى، كانت قد حصلت مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وداوود.

يُجيب يسوع إذن على السؤال الكبير: "مَنْ أَنْتَ؟" مُسنّداً لنفسه لفتات وأدوار كانت التقاليد اليهوديّة تحصرها في غيرة بيهوه. وهكذا فقد ساوى نفسه بالله. وفي جعله تأكيدات حاسمة أكثر فأكثر، يمتلك يسوع

المسيح، يهوديٍّ زمنٍ مُعَيَّن، تصرّفاتٍ خاصّةٍ بالله، ويسند إلى نفسه ما كان خاصّاً بالله.

هذه المماهة حصلتَ خاصّةً وفق ثلاث طُرُق.

أ) مصدر الشريعة

لقد عرّف يسوع ذاته، قبل كلّ شيء، على أنّه أصل الشريعة. وكلمة "شريعة" كانت المرادف الأكثر استعمالاً من قبل الفريسيين للإشارة إلى الألوهية. أن يُقال بأنّ شيئاً ما كان بحسب الشريعة يعني أنّه بحسب الله. بالنسبة إلى مَنْ كان يُصغي إليه، كان أمراً لا يُصدّق سماعه يُردّد: "أنّه قيل... أمّا أنا فأقول لكم". "سمعتُم أنّه قيل لأبائكم: لا تقتل؛ ومن يقتل يستوجب حكم القضاء. أمّا أنا فأقول لكم: إنّ كلّ مَنْ يَغضبُ على أخيه يستوجب حكم القضاء. [...]. سمعتُم أنّه قيل: لا تزن. أمّا أنا فأقول لكم... وقيل أيضاً: مَنْ طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق؛ أمّا أنا فأقول لكم... سمعتُم أيضاً أنّه قيل لأبائكم: لا تحلف باطلا بل أوفِ للربّ ما حلفتَ به. أمّا أنا فأقول لكم... سمعتُم أنّه قيل: العينُ بالعين، والسنُّ بالسنّ. أمّا أنا فأقول لكم... سمعتُم أنّه قيل: أحبّ قريبك وأبغض عدوك. أمّا أنا فأقول لكم...".^{١٠٨} لقد بدّل يسوع ما كان يُمثّل بالنسبة إلى الفريسيين رسالة الألوهية للإنسان، مُعرّفاً بهذا الشكل ذاته بأنّه مصدرُ الشريعة.

ب) سلطان غفران الخطايا

لنتذكّر حادثة شفاء المُخلّع،^{١٠٩} عندما ادّعى يسوع لنفسه سلطان غفران الخطايا، وادّعاه بشكلٍ عمليٍّ، وليس فقط كلاميٍّ. لقد بقي الناس مشدوهين من الأعجوبة، لكنّه كان يقودنا إلى أمرٍ آخر. كان يقودنا إلى

سلطان الغفران الذي هو ملك لله وحده. " تُبَيِّنُ شَفَقَتَهُ مَلاَمَحَ مُذْهَلَةٍ، لَا بَلْ ثَوْرِيَّةٌ، كَانَتْ تَبْدُو بِالنِّسْبَةِ لِمُتَدَيِّنِي ذَلِكَ الْعَصْرِ فَاضِحَةً وَمُدْنَسَةً [...]. إِنَّهُ لَا يَتَقَيَّدُ بِأَيِّ نَمُودَجٍ مِنَ النَّمَاذِجِ الْمَعْرُوفَةِ. إِنَّهُ يَتَطَلَّبُ تَغْيِيرًا، يَسْتَهْدَفُ لَيْسَ فَقَطْ الْهَيْكَلِيَّاتِ الْخَارِجِيَّةَ وَأَشْكَالَ التَّصَرُّفِ، بَلْ أَيْضًا الْمَثَلَ وَالتَّوَجُّهَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ، أَيْ قَلْبَ الْإِنْسَانِ. وَالْحَرِيَّةُ الْمُذْهَلَةُ الَّتِي كَانَ يَبْدُو بِهَا يَسُوعُ كَانَتْ تَطْرَحُ سُؤَالَ: بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَقُومُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءُ؟^{١١٠}

ج) المساواة بالمبدأ الأخلاقي

لِنَعُدْ إِلَى رِوَايَةِ الدِّينُونَةِ الْعُظْمَى، كَمَا نَقَلْهَا لَنَا إِنْجِيلُ مَتَّى. "مَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ، وَجَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ مَعَهُ، يَجْلِسُ عَلَى عَرْشٍ مَجْدِهِ. وَتُجْمَعُ لَدَيْهِ جَمِيعُ الْأُمَمِ، فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجَدَاءِ. وَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجَدَاءَ عَنْ شِمَالِهِ. حِينَئِذٍ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا، يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمُلْكُوتَ الْمَعْدَّ لَكُمْ مِنْذُ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ؛ لِأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي، وَعَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي، وَكُنْتُ غَرِيبًا فَأَوْيْتُمُونِي، وَغُرِيابًا فَكَسَوْتُمُونِي، وَمَرِيضًا فَزَرْتُمُونِي، وَمَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمُ إِلَيَّ. حِينَئِذٍ يُجِيبُهُ الْأَبْرَارُ قَائِلِينَ: يَا رَبِّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطِشَانَ فَسَقَيْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَأَوْيْنَاكَ، أَوْ غُرِيابًا فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا عَمِلْتُمُوهُ لِأَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّغَارِ، فَلِي عَمِلْتُمُوهُ! ثُمَّ يَقُولُ لِلَّذِينَ عَنْ شِمَالِهِ: اذْهَبُوا عَنِّي، يَا مَلَاعِينِ، إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ [...]. لِأَنِّي جُعْتُ فَمَا أَطْعَمْتُمُونِي، وَعَطِشْتُ فَمَا سَقَيْتُمُونِي [...]. حِينَئِذٍ يُجِيبُهُ هَؤُلَاءِ أَيْضًا قَائِلِينَ: يَا رَبِّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا أَوْ عَطِشَانَ أَوْ غَرِيبًا أَوْ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا وَمَا خَدَمْنَاكَ؟^{١١١} وَيُعْطِيهِمُ الْمَلِكُ الْجَوَابَ عَيْنَهُ، وَلَكِنْ سَلْبِيًّا.

يتعلّق الحديث هنا بيوم الدينونة، وما يُعمل به هو المبدأ الأخلاقيّ: ليس المُشرّع، ولكن الأصل أو، بشكل أفضل، طبيعة الخير. أي هو نفسه. حتّى أنّ مَنْ يعمل الخير دون أن يعي الله ويُدرّكه، يعمل الخير لأنّه يُقيم، وإنّ من دون علمه، علاقةً مع الله. إنّ كان هناك عملٌ خيّرٌ للإنسان لأنّه من أجل الله وعملٌ شرّيرٌ إذا استبعدنا الله، فقد وضع يسوع نفسه كمُميّز بين الخير والشرّ، ليس كقاصٍ، بل كمعيار هويّة، إنّهُ هو الخير بعينه وعدم المكوّن معه هو شرٌّ.

حتّى وإن بقينا في منظور ضمنيّة ما، هذا هو الجزم الأقوى لوعي يسوع مساواته بالألوهيّة. لأنّ معيار الخير والشرّ يتطابق مع مبدأ الأشياء، مع الأصل الأساسيّ للواقع. إنّ ينبوع الأخلاق الأعظم هو الألوهيّة، ومبدأ الخير يتطابق مع الحقّ. أن نعيش جيّدًا يعني أن نخدمه ونتبعه.^{١١٢}

الفصل السابع

الإعلان الصريح

وفق السياق الذي اعتمدناه في وصف كيفية طرح المسألة المسيحية أودّ أن أشدّد على بعض مظاهر المنهج والدينامية التي أدّت إلى وجودها لأنها هي الدينامية نفسها التي تتكرّر في جميع حقبة التاريخ. أي أنّه كلّما توافقنا مع تصرّف ذلك الإنسان واتّبعناه كلّما قادنا إلى التساؤل: "كيف يُمكنه أن يكون هكذا؟" وهذا ما أدّى في النهاية إلى فرض السؤال بقوة. وفي ذكرنا لمفهوم اليقين المعنوي^{١١٣} توصلنا إلى الاستنتاج التالي: إنّ الطبيعة تسمح لنا بالحصول على اليقين في ما يتعلّق بالتصرّف الإنسانيّ - كونها أساسية للحياة - بشكل أسرع من أنواع أخرى من اليقين أي من خلال حدس التقاء كثير من الدلائل في نقطة واحدة. بقدر ما يتقاسم أحدنا منا حياة إنسان كانت له القدرة على اليقين المعنويّ تجاهه لأن الدلائل المتراكمة تتضاعف. هذا ما حصل مع يسوع المسيح. كان صلاحه وذكائه وقدرته الرهيبة على معرفة باطن الأمور وإمكاناته العجائبيّة في التحكم بالأشياء وتصرّفه الطبيعيّ في صنع العجائب، كلّ هذه مؤشّرات تتضاعف باستمرار، لمن عاش معه وعرف كيف يصغي إليه، وتعمّق، مؤشّرات تجعلنا نُصاب بالدهشة، مؤشّرات تُثير سؤالاً لا نعرف له جواباً ولكن يجب أن يكون بمقدورنا الإجابة عليه.

من المؤكّد أنّ الرسل أنفسهم يبحثون عن أجوبة. والأنجيل نخبرنا مثلاً عن حدث جرى قرب قيصرية فيلبس^{١١٤}. نستطيع أن نحاول تحيّل

ديناميته. فبينما كان يسوع يمشي مع صحبه في طريق يؤدي إلى بحر الجليل، يرى في لحظة معينة أنّ المرّ يحاذي مُنحدر صخريّ، وكما يفعل كلّ منا، يتوقّف لحظة لينظر، وكمّن جذبته فكرةً مفاجئة يتوجّه إلى صحبه قائلاً: "من يقول الناس إنّني أنا؟". فأجابوه: "بعضهم يقول إنّك يوحنا المعمدان، وبعضهم الآخر إيليا، وغيرهم يقول أحد الأنبياء القدماء قد قام من الأموات". ثمّ يعود فيسأل: "ومن أنا في رأيكم أنتم؟" وعلى عادته، يقول بطرس بعفوية، مكرّراً على الأرجح شيئاً كان قد سمعه من يسوع نفسه رغم عدم فهمه الكامل له: "أنت المسيح ابنُ الله الحيّ". كان بطرس قد توصّل إلى هذه البينة التي كانت تجعله يفكر بيسوع: "إن لم استطع أن أثق بهذا الرجل، فلن أستطيع الوثوق حتى بنفسي". وبعد أن نظر يسوع إلى المنحدر الصخريّ أمامه، تلك الصخرة التي بُنيت عليها قلعة قيصرية فيلبس العصية على الأعداء بفضل موقعها، نظر إلى بطرس وقال له: "أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني بيعتي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها". وقبلها بقليل كان قد قال له "طوبى لك" لأنّ الجواب الذي أعطاه بطرس على سؤاله لم يجده بنفسه ولكن الأب السماويّ أشار لك بهذا".

حاول الجميع الإجابة على التساؤل حول هويّة المسيح؛ الجميع أمام المسألة التي يمثّلها، كانوا مضطربين لأنهم لم يعطوا جواباً وافياً عنه، وعندها سألوه: "من أنت؟". وهو يعطي بالفعل جواباً ولكن كما رأينا قبل قليل، يبطء وبأسلوب تربويّ استهله بتؤدة بمقدّمة كيلا "يطفئ الشعلة الذابلة"^{١٥}. كان الجواب بالفعل صعباً عليهم، ومثيراً للاضطراب في عقليّتهم. وهكذا قام بخطوات تمهيدية للجواب المبين. فاعتبر نفسه سبباً يستحقّ خوض غمار الحياة من أجله وقدّم نفسه كعنصر مؤسس للعلاقات التي تشكّل قلب حرّيتنا، وأخيراً بدأ ينسب لنفسه بادرات وميزات ينسبها الكتاب المقدس

والتقليد اليهوديّ بغيره كبيرة إلى الله. إنّه يُصبح خالق الشريعة وغافر الخطايا ويعرّف نفسه كينوع الأخلاق.

ولكن عند بلوغه نهاية الأزمنة يصبح إعلانه بيّنًا. فالمسيح يعرّف عن نفسه أخيرًا أنّه الله بشكل واضح. وكان هذا فقط عندما أصبحت ضمائر من حوله قد اتّخذت مواقف أكيدة تجاهه.

بالفعل، يميل الله إلى إعطاء قيمة للوضع الذي وُضعت فيه سابقًا حرّيتنا نفسها. والطريقة التي يعاملنا بها الله تساند قرار حرّيتنا المتّخذ، وتُرفع الإفصاح بشكل أفضل عما هي مُستعدّة لعمله. وعندما تتوقع الحرّية على نفسها فإنّ كلّ شيء يحدث يؤدّي بها إلى الانغلاق أكثر فأكثر، والعكس بالعكس. "لأنّ من كان له شيء، يُزاد فيفيض. ومن لا شيء له، يُؤخذ منه حتّى الذي له" ١١٦.

وهكذا فإنّ الدليل الأكيد الذي سيُعطيه عن نفسه سيُصبح لأصدقائه مناسبة لإظهار علاقة أكبر معه؛ ولأعدائه ذريعة أخيرة للقضاء عليه.

لنستعرض الآن ثلاث مواقف مميّزة تبدو فيها بوضوح صراحة يسوع.

(١) البيان الأول للصراحة

في الأزمنة الأخيرة نرى يسوع مُتواجداً بشكل شبه دائم في رواق الهيكل متحدّيًا الفريسيين من الصباح إلى المساء. وكانت أجواء أورشليم متأجّجة بسبب شخص يسوع. "كان هنالك الكثير من الهمس والكلام في الخفاء بين الجموع المُكوّنة على الأرجح من أناس محليين وحجاج. إنّ الآراء مختلفة، لكن ما يُسمع هو فقط أحكام موجزة. والإقرار الحاسم ("إنّه صالح") يواجهه افتراء ("إنّه يغوي الشعب"). والشريعة اليهودية تحكم

بالرجم على جريمة الإغواء. إنها لتعبير قويّ [...] ولكن الوضع في أورشليم يظهر خاصّةً في الرُعب من إبداء الرأي الشخصي؛ فالشعب لا يجرؤ على البّوح بأفكاره "خوفًا من اليهود". وهنا يقصدون بشكل لا لبس فيه السلطات الدينيّة التي تستخدم التهديد والانتقام^{١١٧}.

يمكن أن يبدو الموقف الأوّل الذي نودّ التحدّث عنه للقارئ العصريّ غير واضح. ولكنّه يصبح كذلك في نطاقه الزمنيّ. كانت الأسابيع الأخيرة من حياته والأجواء المحيطة به في العاصمة كما وصفناها. حتى تلك اللحظة كان يسوع قد هرب من الفريسيين كيلا يقبضوا عليه. ولكنه الآن يذهب إلى أورشليم بتصميم. كانت الحالة متأزّمة لدرجة أنّ قراره هذا أدّى إلى ردود فعل لدى أصدقائه. سجّل الإنجيليّون أنّ "بطرس انفرد به وأخذ يحتجّ"^{١١٨} أو أنّه "أخذ يعاتبه"^{١١٩}. ولكن يسوع اعترض: "إنّ أفكارك هذه أفكار البشر لا أفكار الله"^{١٢٠}.

يستخدم الجدال في أورشليم، لكنّ مشهد المشاهدات في المدينة المزدحمة بالحجّاج يجذب الكثير من الفضوليين. حتى أنّ يسوع يأخذ المبادرة ليحمل على الفريسيين في نطاق أهمّ اختصاصاتهم: تفسير الكتابات التي كانوا يعرفون كلّ خفاياها. "وجد يسوع الفريسيين مجتمعين معًا فسألهم: "ماذا تقولون عن المسيح؟ ابنٌ من هو؟". فأجابوه: "ابنُ داوود". فالجواب جاهزٌ في موضوع المسيح، وهو كلامٌ مألوف بالنسبة للكتبة والفريسيين الذين كانوا، كما الآخرين، ينتظرونه في ذلك الزمان. "وقال لهم: "فكيف يدعوه داوود بالروح ربًّا قائلاً: قال الربّ لربّي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئًا لقدميك؟" إنّ النبوة تستعمل إذن نفس العبارة للإشارة إلى الله وإلى الذي سوف يأتي. ويختتم يسوع: " "فإن كان داوود يدعوه ربًّا فكيف يكون ابنه؟" فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة ومنذ ذلك اليوم لم يجسر أحد

منهم على استجوابه"١٢١. ورغم أن أيّ كلمة من الكتابات لم تكن خافية عليهم، فإنّ قدرتهم على الشرح لم تكن كافية لكي يردّوا بنفس القوّة على يسوع. لكنّ شيئاً ما حاسماً ومهيّياً من تفكيره لا بدّ أن يكون قد وصل إليهم إذ لم يوجّهوا له أيّ سؤال بعد ذلك اليوم. لقد أُعطيت بدايةً جواب واضح: تنكشف طبيعة يسوع الإلهيّة.

(٢) مضمونُ تحدّ

إنّ موقفاً آخر من الإعلان الصريح قد نقله إلينا يوحنا الإنجيليّ في الفصل الثامن^{١٢٢}. فرغم الجوّ المشحون لتلك المشادات في الهيكل، يلاحظ الإنجيل أنّ بعض اليهود المُصغين إلى يسوع "كانوا يؤمنون به". كانوا على الأرجح أناساً يقولون فيما بينهم: "في نهاية الأمر، إنّه ليس برجلٍ يُمكن رفضه كليّاً، فهو ينطق بأشياء تحفّز على التفكير ويعلّلها...". قد يكون باستطاعتنا اليوم أن ندعوهم بالمتعاطفين.

وبعدها يلاحظ يوحنا أنه في إحدى المناسبات قال يسوع للمتّعاطفين معه: "إذا ثبتّم بكلامي صرّتم حقّاً تلاميذي، ستعرفون الحقّ والحقّ يُحرّركم". تفاجأ الحاضرون بهذا الكلام الجازم. "لقد جرح كلام يسوع كبرياءهم الدينيّ والوطنيّ. [...] إذ أنّهم، ورغم كلّ الاضطهاد السياسيّ، يعرفون أنّهم أبناء إبراهيم الأحرار، ولم يرضخوا في داخلهم أبداً لأيّ هيمنة أجنبيّة"^{١٢٣}. ولذا فهم يعترضون على يسوع بأنهم كانوا دوماً أحراراً، فكيف يُمكن ليسوع أن يجعل حرّيتهم مرتبطة به؟ ويردّ يسوع: "كلّ من يعمل خطيّة هو عبدٌ للخطيّة. والآن فالعبد لا يبقى دائماً في البيت، ولكن الابن يبقى؛ فإذا حرّركم الابن ستصبحون فعلاً أحراراً". يستعين يسوع هنا بصورة رمزيّة ليوضح قدرته على جعلهم أحراراً: "الصورة هي لمجموعة

منزلية فيها عبيد وابن رب البيت. سيترك الخدم، أو العبيد، يوماً ما البيت، أما الابن فهو الوريث وسيبقى فيه. حالات كثيرة من هذا القبيل تقع في فلسطين كما وفي العالم الهليني^{١٢٤}. ما يريد أن يقوله يسوع هو أنّ من يُخطئ هو كعبدٍ لخطئه. إنّ العبد لا ينتمي بعد إلى العائلة. لكن الابن هو داخلها، في عائلة الحرّية. يبدو إذن كما لو أنه يقول: إنّ من سيأخذكم ويدعكم تدخلون كأحرار إلى البيت هو الابن.

لقد رأى يسوع بالتأكيد تعابير الاستياء ترسم على وجوه الحاضرين، ولهذا يُصرّ على استفزازهم. مهما كانت النتيجة. "أعرف أنّكم من سلالة إبراهيم. ولكنكم الآن تحاولون قتلي لأنّ كلامي لا يجد وقفاً فيكم. أنا أقول ما رأيته لدى الآب؛ أنتم أيضاً إذن افعلوا بما سمعتموه من آباكم!". ويصرخ الحاضرون من جديد في جوّ يحتدّ أكثر فأكثر. إنّهم من سلالة إبراهيم. ويردّ يسوع: "إن كنتم أبناء إبراهيم فافعلوا أعمال إبراهيم! ولكنكم الآن تحاولون قتلي لأنّي قلت لكم الحقّ؛ هذا ما لم يفعله إبراهيم". فهم رؤساء اليهود "أنّ يسوع يريد أن ينسب إليهم أباً آخر غير إبراهيم. [...] بالنسبة لليهود كان إبراهيم البادئ في عبادة الله وهو الذي اعترف بأنّ الله هو خالق الأكوان وكان خادماً مخلصاً له. [...] وإنكار يسوع أنّ اليهود هم أبناء إبراهيم يعتبر شتيمة وطعناً بإخلاصهم لله^{١٢٥}.

"نحن لنا أبّ واحد، هو الله!" ولكن يسوع يردّ بقوة: "لو كان الله آباكم لأحببتموني بالتأكيد، لأنني من الله خرجت وأتيت؛ لم آت من تلقاء ذاتي، بل هو الذي أرسلني. لماذا لا تفهمون ما أقوله لكم؟ لأنكم لا تطبقون أن تستمعوا إلى كلامي. فأنتم أولاد أبيكم إبليس وتريدون أن تتبعوا رغبات أبيكم، هذا الذي كان من البدء قاتلاً. ما ثبت على الحقّ، لأنّ لا حقّ فيه. وهو يكذب والكذب في طبعه، لأنّه كذاب وأبو الكذب. أمّا أنا فلا

تُصدّقونني لأتّي أقول الحقّ. فمن منكم يقدر أن يُثبت عليّ خطيئة؟ وإذا كنت أقول الحقّ فلماذا لا تُصدّقونني؟". وتابع يسوع مناقشتهم واتّهامهم بشكل عنيف قائلاً بوضوح إنّ كلّ ادعاءاتهم (بنوّتهم لإبراهيم وبنوّتهم لله) تصطدم وتتلاشى أمام واقع أنهم يريدون قتله [...]. يتكلم يسوع ويناقش وهو واعٍ لاتّحاده الكلّي مع الله^{١٢٦}. وهكذا فكلّ الذين كانوا متعاطفين معه أصبحوا غرباء عنه بسبب المناقشة لأنهم شعروا بتجريح في كبريائهم الدينيّ، ووقفوا إلى جانب الذين كانوا قد تصادموا مع يسوع، واتّهموه بأنّ الشيطان قد تملكه، إي أنه بعيدٌ جدّاً عن الله الذي كان يسوع قد قال منذ قليل إنّهُ أرسله.

ولكنّ يسوع يسير بعزم في طريق إظهاره لذاته: يرفض الاتهامات، يرفضها ويؤكد أشياء تؤدّي إلى تأزّم وزيادة الصخب والضجيج: "لا شيطان فيّ، ولكنّي أجدّ أبي، وأنتم تُحقّرونني. أنا لا أطلب مجداً لي؛ هناك من يطلبه لي ويحكم. الحقّ الحقّ أقول لكم: من عمل بكلامي لا يرى الموت أبداً". كان ردّ الفعل عنيفاً: صرخوا به بأنّ ما يقوله يؤكّد دون أدنى شكّ بأنّه مجنون وبه شيطان. كيف يمكنه أن يعد باتقاء الموت؟ كلّ عظماء التاريخ، إبراهيم والأنبياء حسبوا حساباً للموت. إنّ هذا القول هو حجر عثرة: سواء بالنسبة للذين فسّروا حرفياً وبسذاجة عبارة يسوع، سواء بالنسبة للذين استشعروا، ولو بطريقة عفويّة، بأنه كما لو قال: "إنّي أعلن لكم على الملأ بأن من يتبع كلامي يتبع شيئاً لا يمكن أن يحده الزمان ولا التاريخ".

"وأنت من تظنّ نفسك؟" إنّ صياغة هذا السؤال الذي يتبع الفقرة المقتبسة تُبرز للتوّ الشكّ والاستفزاز. "حتى أنّ الرجال القرييين بشكل خاص من الله بحسب الإيمان اليهوديّ اضطروا أن يشاطروا مصير كل

الناس؛ ولهذا السبب كانت الجملة الأخيرة: "من تظنّ نفسك؟" تلمح إلى أنّ يسوع يريد أن يتساوى مع الله [...]. الله وحده هو الحيّ الأزليّ والمُحيي [...]. ويسوع يدّعي اتقاء الناس من الموت بفعل كلامه. وهو بهذه الطريقة يستلب حقاً محفوظاً لله وحده ويضع نفسه فوق كلّ البشر وإلى جانب الله^{١٢٧}. ولكنّ يسوع قال أيضاً "أمجّد أبي"، مضيفاً "أنا لا أطلب مجداً لي"، وقبل أن ينتقل إلى الإعلان الكبير في الآية ٥٨، وقبل أن يصل إظهار ذاته إلى المرحلة النهائية الأكيدة^{١٢٨}، سيؤكّد، وكأنّه يعطي أقصى احتمال لحرية السامعين، اعتماده على الآب، هذه العلاقة العجيبة التي كان بإمكانها تشكيك الحاضرين بأنّهم غير متواجدين أمام مدّح متعجرف: "إذا مجّدت نفسي، فمجدّي باطل؛ من يمجّدني هو أبي، والذي تقولون "إنّه أبانا!" ولا تعرفوه. أما انا فأعرفه. وإن قلتُ إنّي لا أعرفه أكون مثلكم كاذباً، ولكنّي أعرفه وأحفظ كلامه"^{١٢٩}

وهكذا، فيما يمكن للشخص المنتبه أن يفهم بطريقة عفوية أنّ "التهجّم على ما أسموه بعجرفة يسوع تتناثر أمام طاعته"^{١٣٠}، دفع يسوع إلى ابعاد حدّ استفزازه: "إبراهيم، أباكم، ابتهج على رجاء رؤية هذا اليوم؛ قد رآه وتهلل". في آية عبقرية إنسانية هناك نبوة اكتمال يضمن تجسّدها شخص المسيح. وهكذا أصبح واضحاً للأعداء اللامعنى، الادعاء المفرط والمستحيل لما يقوله يسوع. حتى أنّ اعتراضهم باطل: "لست بعد في سنّ الخمسين وقد رأيت إبراهيم؟". أجابهم يسوع: "الحقّ الحقّ أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن". فأخذوا حجارة ليرجموه ولكن يسوع اختبأ وخرج من الهيكل". إنّ المناقشة التي كانت قد بدأت لتعمّق التعاطف والفضولية، قد انتهت في خلاف دراميّ شامل. هناك تأكيدات تصبح أمامها لعبة الأنانية في النفس البشرية كما لو أنها انفجرت.

إنها تحدّياتٌ للعقل، هكذا كما يعيش، ليس بالطبع للعقل في كلّ اتّساعه وشهّيته للمعرفة^{١٣١}. إنّها تحذيرات وأعلانات لا يمكن التساهل معها. "الآن يعلن يسوع بكلمات واضحة [...] سُمُوهُ على إبراهيم. [...] يمتلك يسوع ما قبل الكينونة الحقّة [...] والتي يشملها كيانه الإلهيّ السرمديّ"^{١٣٢}.

يجب الملاحظة بأنّه لو وُضعت كلمة "العقل" بدل كلمة "إبراهيم" وكلمة "مفكرّين" بدل كلمة "فريسيّين" لكانت كلّ الجدليّة قابلة للتطبيق على التجاذب بين الإيمان والثقافة الدنيويّة الماثلة في أيّامنا الحاضرة.

٣) الإعلان الختاميّ

نجد النقطة الثالثة والأخيرة في إنجيل متى، في الفصل السادس والعشرين^{١٣٣}.

في تلك الأسابيع الأخيرة المضطربة ازدادت نداءات يسوع إلى الإيمان، آيات وكلمات تبعث الإنسان على التفكير في إلحاح دعوته وفراستها. فبعد مراقبتهم الطويلة له وتتبّعه لفحص تعاليمه، قرّر رؤساء الكهنة إعلان خطر يسوع. إنّهُ لا يتطابق مع صورة المسيح التي كانوا ينتظرونها. إنه يتهمّ عليهم، هم مفسّري الشريعة، ويصرف الشعب عن التقاليد الحقيقيّة بتعاليم مشكوك فيها. وقد يجذب كثيرًا انتباه الرومان. باختصار: لقد قرّروا القبض عليه. أُلقي القبض على يسوع واقتادوه أمام السنهدرين للمحاكمة. كبيرٌ هو مطلب العدالة لدى الإنسان لدرجة أنّه لا يسمح بالظلم إلا إذا بدا على الأقل في مظهر العدالة، مثبتًا هكذا ضرورتها. كان السنهدرين المجلس الأعلى لليهود وكان من صلاحيّاته محاكمة يسوع وإدانته، ولكنّ الظروف التاريخية التي شاءت أن تكون اليهوديّة ولايةً

ضمن الإمبراطورية الرومانية أدّت إلى حاجة السنهدرين إلى عرض لائحة الاتهام على الحاكم الرومانيّ في القضايا الهامة كالتّي تقتضي حكمًا بالإعدام. وهكذا، وفي حالة يسوع، استعدّ السنهدرين لاتباع الإجراءات الرسميّة كيلا يُتهم بأيّة مخالفة: في البداية استماعُ أمام المجلس، ثم عرض التهمة على الحاكم الرومانيّ. تمّ اتّهام يسوع بأمرٍ كثيرة أمام المجمع، حيث حضر شهود زور كثيرون تناقضت شهاداتهم فيما بينها. تخبرنا الأناجيل عن انزعاج عام في السنهدرين الذي كان يبحث عن تهمة حاسمة لم يستطع إيجادها لوقت طويل. إلى أن قال شاهدان: "لقد أعلن هذا الرجل: بمقدوري تدمير هيكل الله وإعادة بنائه في ثلاثة أيام". لقد حوِّروا بالطبع، وبشكل مُنحاز، عبارةً كان يسوع قد نطق بها قبل أيام وكان يقصد بها نفسه وشخصه. وبما أنّ رئيس المجمع كانت تنقصه الحجج المهمّة، ألحّ على يسوع أن يدافع عن نفسه، وحثّه على الإجابة. لكنّ زيف تفسيرهم لعبارته كان واضحًا جدًّا فبقي يسوع صامتًا. لقد أصبح رئيس الكهنة في وضع حرج، فهو يعرف أنّه يتوجّب عليه أن يحصل على شيء ما، على الأقلّ صورياً، فنزع تحفّظه الأخير في الاتّهام، وتطرّق إلى موضوع لم يكن يرغب البتّة في إثارته، إذ كان من العار ذكره محتواه التجديفيّ. "أستحلفك بالله الحيّ أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله". فأجابه يسوع: "أنت قلت. وأنا أقول لكم: سترون بعد اليوم ابن الإنسان جالسًا عن يمين الله القدير وآتياً على سحاب السماء". وأمام الاستفزاز للشهادة التي نطق بها، لم يستطع يسوع أن يصمت أكثر. وهكذا صرخ كل المجمع لهذا التجديف وأعلن أنّ يسوع يستحقّ الموت.

لا يقتضي الاعتراف بأنّه المسيح بالضرورة اتّهامه بالتجديف. لأنّ يسوع في نفسه لنفسه في جوابه فقرتين مسيحانيّتين من العهد القديم (المزمور ١١٠ والفصل السابع من سفر دانيال^{١٣٤}) أعلن بحزم أنّه المسيح.

ولكن إضافة عبارة "ابن الله" (والتي استعملها يسوع) على تعبير "المسيح" في السؤال نفسه إشارة إلى حالة تأهب موجودة أكّدها يسوع في جوابه. أجاب المجمع في استيائه على الاعتراض المعاصر الذي يقول إنّ يسوع لم يعلن نفسه الله، ولكن ابن الله. بالتأكيد، إن السلطات الدينية في ذلك الزمان قرأت في عبارة الناصريّ تماثلاً مع الإلهيّ، وهذا الادّعاء عدّوه لغطاً بين الواقع البشريّ والواقع الإلهيّ يبرّر تهمة التجديف. ما من أحد، من بين الكثيرين الذين ادّعوا بأنّهم المسيح في ذلك العصر، قيل عنه إنّّه يجدّف. بالعكس، بما أنّ المسيح كان منتظراً، كان القادة الدينيّون الأذكياء يتبعون طريقة بسيطة للتحقق من ذلك. إن كان أحد حقاً هو المسيح، المحرّر الذي كان الجميع ينتظره، فسيصل إلى نتائج، وإلا فسيفشل. لا شيء كان يمكنه أن يجعل السنهدرين يحيد عن هذا التصرف "العاقل" لالتخاذ موقف خطير كتهمة التجديف إن لم يكن الأمر يتعلّق باستفزاز أعظم من ذلك، بشيء يخلق اضطراباً، ويضع قيد النقد فكرة الله نفسها التي كانوا يكرّمونها ويدافعون عنها ضد أيّ التباس وتخريف وإفساد لمفهومهم النقيّ ليهوه.

إن الحكم بالموت على يسوع أمام المجمع كان بسبب التجديف، كما تمّ شرحه للحاكم الروماني: "لأنّه جعل نفسه ابن الله"^{١٣٥}. حتى وإن شدّدوا أمام بيلاطس على ادعاء يسوع بأنّه ملك اليهود، وهو لقب كان يمكنه أن يزعم ممثّل الإمبراطورية.

٤) رصانة الحرّية

إن العناصر الكفيلة بالفصل في الزعم المسيحي هي هنا. وكل عنصر إضافيّ، حتى ذلك العنصر العظيم الذي تبع موت يسوع وقيامته المشهود عليها من كثيرين رأوه حيّاً، سيظهر "أفكار قلوب كثيرة".

عندما كان يسوع طفلاً، قام رجلٌ اسمه سمعان، قال عنه الإنجيل إنه "صالحٌ ويخاف الله"، رجلٌ كان يرغب من كل قلبه معاينة المسيح قبل وفاته، بحمل الطفل بين ذراعيه عندما أتى به والدّيه إلى الهيكل حسب التقليد، وقال لأُمّه إنّ ابنها سيكون "علامة من الله يُقاومونها" [...] وهكذا ستكشف خفايا أفكار كثيرة^{١٣٦}. إنّ جزم يسوع هو ببساطة حدثٌ، والأحداث تُبرز طريقة التصرّف العميقة لقلب الإنسان، أي إذا كان هذا القلب مُغلّقاً أمام سرّ الوجود أو مفتوحاً.

إنّ المسألة المسيحية تجد حلاً في نفس العبارات التي تُطرح بها: فإمّا نحن أمام جنونٍ، أو أمام ذلك الرجل الذي يدّعي بأنّه الله، وهو الله. إنّ مسألة ألوهية المسيح تقتصر على ما يلي: بديل يدخل فيه أكثر من أيّ مناسبة أخرى قرار الحرية. قرارٌ له جذور خفيّة ومتّصلة بتصرّف قبالة الواقع بكيّته. الحرية ليست ممثلة بخيارات صاخبة، فهذه لا تعلّل درامية حياتنا. الحرية هي الأكثر رصانة في الوجود. يتّخذ الروح موقفاً أصلياً قبالة الواقع ثم ينمّيه، ويعيه لاحقاً فقط، خاصةً في الخيارات الحبلية بنتائج هامة. أمام مسألة يسوع المسيح تتحقّق نتيجة موقف البداية، الموقف الأكثر حميمة وأصالة في وجداننا أمام مجمل الكائنات و أمام الكائن.

الفصل الثامن

تصوّر يسوع للحياة

(١) تمهيد: تربية على الأخلاق ضرورية للفهم

أ) نحن لا ندرك قيمة الشخص مباشرة كما لو أننا نراها. فالحميمة الشخصية تُفهم بمقدار ظهورها - إنها تظهر من خلال "بَادرات" وعلامات - وُثْمَكن مقارنتُها بالعوارض التي يعتبرها الطبيبُ مظاهرَ لواقعٍ لا تُدركه مراقبته مباشرةً. فكلّما كان الطبيب عبقرياً كانت لديه القدرة على تقييم العوارض وهكذا، ومن أجل فهم قيمة شخص ما والحكم عليها من خلال بادراته، نحتاج إلى "عبقرية"، إلى عبقرية بشرية. يتعلّق الأمر بقدرة سيكولوجية متطورة ومسهّلة بعض الشيء. إنها تتألف من عوامل ثلاثة: إحساس طبيعيّ، كمال التربية واهتمام.

ب) بالأخصّ، لكي ندقّق في مدى مصداقية عملٍ ما مُتعلّق بشخصية أخلاقية ودينية، ينبغي وجود عبقرية أخلاقية ودينية تمكّن من شرح بوادر هذا الشخص كعلامات باغة الأهمية في ذلك المعنى بالتحديد. ولكن لنتساءل: ما هي الأخلاق؟ الأخلاقيات هي العلاقة بين البادرة وتصوّر كلّ ما يحتويها.

فالإنسان بالفعل يتحرّك دائماً في بُعدٍ كونيّ - ضمنيّ أو ظاهر، واعٍ أو غير واعٍ - . إنّ القدرة التي نتكلّم عنها ليست إذن بالضرورة مُبيّنة في

مستوى من القداسة، من أخلاقية غير مُعيبة؛ ولكن بما أننا نتكلم عن العلاقة الأولية بين الخصوصي والكلي، فهي تتميز بانفتاح أصلي للروح؛ كموقف استعداد أصلي وتبعية، وليس كإكتفاء ذاتي؛ كإرادة لتأكيد الوجود وليس لتأكيد الذات.

يُترجم كل هذا أخلاقياً كمُقارنة خاصة مُعاشة مع مثال أعلى يفوقنا، إي كتواضع يعيش في جهد "تحسين الذات" الذي يتمثل برغبة صريحة أو، على الأقل، في انزعاج من الشرّ الذاتي.

إننا نتكلم هنا عن الشعور الخاص بالخلقة، إي بالكائن بصفته تابعاً، ويتعلق الأمر بجذور التدنّين نفسها. وهكذا، فإنّ الخيار الأكثر درامية لحريتنا، وحالة القدرة على مراجعة الذات التي نتكلم عنها، تحتل مكاناً في أعماق وجودنا: إنّه خيارٌ بين الاكتفاء الذاتي والجهوزية؛ بين ذلك التلميح الحاسم للانغلاق الذي يمنع مراجعة الأحداث، ويمنع إذن الفهم ليصبح في النهاية اللاتدّين من جهة، وبين بساطة طبيعّية مُعاشة تعطي على مرّ الزمن ثمار الوعي وتسمح للذكاء والقلب بالانفتاح على الأحداث من جهة أخرى.

(ج) يَنْبَه يسوع دوماً في الإنجيل إلى ضرورة ما أسميناه بالعبريّة الأخلاقية لكي نفهمه، ويلحظ كيف أن التعمّد على تصرّف الاكتفاء الذاتي، غير المتوفّر، يجعل من المستحيل استيعاب القيمة الكاشفة لما يتمّمه. بدءاً من جزم يوحنا ("وكان في العالم، وبه كان العالم، وما عرفه العالم، جاء إلى خاصّته وخاصّته لم تقبله")^{١٣٧} إلى الكلمات التي تبعت لقاءه مع نيقوديموس ("وهذه الدينونة هي أنّ النور جاء إلى العالم، فأحبّ الناس الظلام بدلاً من النور لأنهم يعملون الشرّ. فمن يعمل الشرّ يكره النور، فلا يخرج إلى النور لئلا

تنفضح أعماله، وأمّا من يعمل للحقّ، فيخرج إلى النور حتى يرى الناس أنّ أعماله كانت حسب مشيئة الله" (١٣٨). إنّ كل مقدّمة الإنجيل الرابع هي مدخل للدراما التي سيعيشها يسوع على صعيد الضمير الإنسانيّ والتي تبدو جليّة أكثر في الفصول الخامس والسادس والثامن. لماذا لا تفهمون ما أقوله لكم؟ لأنكم لا تطيقون أن تستمعوا إلى كلامي. فأنتم أولاد أبيكم إبليس وتريدون أن تتبعوا رغبات أبيكم، هذا الذي كان من البدء قاتلاً. ما ثبت على الحقّ، لأنّ لا حقّ فيه. وهو يكذب والكذب في طبعه، لأنّه كذاب وأبو الكذب. أمّا أنا فلا تُصدّقوني لأنّي أقول الحقّ. فمن منكم يقدر أن يُثبت عليّ خطيئة؟ وإذا كنت أقول الحقّ فلماذا لا تُصدّقوني؟ من كان من الله سمع كلام الله: لهذا انتم لا تسمعون، لأنكم لستم من الله (١٣٩). إنّ الأعجوبيّتين الكبيرتين المسرودين في إنجيل يوحنا لهما دلالة: شفاء الأعمى منذ الولادة^{١٤٠} وقيامّة اليعازر^{١٤١}. في هذين النصّين تظهر جليّاً تصرفات الحرّيّة التي تمثّل نقيض الانفتاح الجهوزيّ، المدعوّون نحن لتبنيّه، لنحكم على مصداقية زعم يسوع.

نجد في القصة الأولى رجلٌ شفي من العمى، وبما أنّ الأعجوبة قد تمّت في يوم السبت المُخصّص للراحة فإنّ الرؤساء الدينيّين يجردونها من قيمتها كما لو أنها لم تأت من الله. إنهم يحاولون "وضع رجل يميل نحو الإيمان في موقف صعب، من خلال القيام بضغوطات ونشر الرعب في قلوب الناس [...]، رافضين كل ما شأنه إثبات مجيء يسوع من الله". إنهم "أسرى تصرف شرعويّ"^{١٤٢}. ولكن ذاك الذي شفي لا ينساق للخداع: "وقبالة معرفتهم المتعجرفة كانت هناك خبرته الشخصية بأنّ الله شفاه؛ ولا يحيد عن هذا اليقين".^{١٤٣}

إنّ قيامة اليعازر الصاخبة من بين الأموات هي ذروة الأعمال التي قام بها يسوع، حتى أنّ كثيرين آمنوا بفضلها. وعلى العكس، بعض الحاضرين "ركضوا ليُعلموا" الفريسيين بما حصل. وبما أنّهم اعتادوا على الخضوع، تخلّوا عن المُقارنة الحرّة بين الأحداث وإنسانيّتهم، ووضعوا أنفسهم تحت سلطة من هم أكثر تأثيراً منهم. وبينما كان الفريسيّون قد قاموا بالتحقيق في قضية الأعمى منذ الولادة، فإنّهم قرّروا فوراً قتل يسوع عند قيامة اليعازر. ونحن أيضاً، على كلّ حال، لا نشعر أبداً بأننا نفهم إلا من قبل الذي لديه شيء منّا. من أصغى لشخص ما وليس بداخله شيء ما يجعله بشكل من الأشكال قريباً من خبرة الآخر، يمكنه أن يحرف معنى عباراته. وهكذا، لكي نقارب مفهوم يسوع الأخلاقيّ ونقيّم الشخصيّة التي تظهر منها، ينبغي وجود إنسانيّة، إمكانيّة توافق إنسانيّ معه.

(د) إنّ ما أسميناها عبقرية دينيّة، هذا الانفتاح التامّ أمام الروح، ولو كانت تنطلق من مواهب طبيعيّة متنوعة لدى كلّ واحد منّا، هو شيء يجب أن ينشغل به الإنسان دائماً. كبيرة هي مسؤوليّة التربية: فتلّك المقدرة على الفهم، بالفعل، ورغم توافّقها مع الطبيعة، ليست عفويّة. وبالعكس، إذا عوملت كعفويّة محضة، فإنّ أساس الإحساس الذي نملكه في طبيعتنا يحنّق؛ إنّ احتزال التدبّر إلى عفويّة هي الطريقة الأكثر قطعيّة وخفّة في اضطهادها، وفي تعظيم أوجّه المتأرجحة والمؤقّعة، المرتبطة بمشاعر عرضيّة. إذا لم يكن الإحساس بإنسانيّتنا مستحقّاً على الدوام ومنظّماً، فلن يتوافق معها أيُّ حدثٍ مهمّ كان مُهمّاً. فالكلّ اختبر في نهاية الأمر ذلك الشعور بالغربة الغبيّة نحو الواقع الذي يُعاش في يوم تركنا فيه أنفسنا تنجرف وراء الظروف، ولم نقم بأيّ جهد: وفجأة في ذلك اليوم تصبح بعض

الأشياء والكلمات والأحداث التي كانت قبلاً واضحة للعقل غير واضحة ولا نعود نفهمها.

بعد ثلاث سنوات قضّاها يسوع في عمل العجائب، طلبوا منه القيام بأعجوبة أخرى. سألوه علامةً تقلب حريّتهم رأساً على عقب. ولكن الله لا يعتبر الإنسانية موضوع إرغام، بل "دعوة" حرّة.^{١٤٤}

٢) القوام الإنسانيّ

مَن هو يسوع؟ طُرح السؤال فأجاب.

أجاب مُظهرًا ذاته من خلال كل مبادرات شخصيّته: "لولا أنّي جئت وكلمتهم، لما كانت عليهم خطيئة... لولا أنّي عملت بينهم أعمالاً ما عمل مثلها أحد، لما كانت لهم أخطيئة. لكنهم الآن رؤوا ومع ذلك أبغضوني وأبغضوا أبي. و كان هذا ليتّم ما جاء في شريعتهم: أبغضوني بلا سبب".^{١٤٥} ولكن "المبادرة" الأكثر وضوحاً، وبالتالي "العلامة" الأكثر دلالة، هي الإدراك الذي يملكه المرء عن الحياة، وإدراك الشعور الشموليّ والنهائيّ الذي يملكه عن الإنسان. إنّ ما هو إلهيّ فقط يستطيع "إنقاذ" الإنسان، أي أنّ الأبعاد الحقيقيّة والجوهريّة للصورة الإنسانية ولمصيرها "يصونها" فقط ذاك الذي يُشكّل معناها الأساسيّ، أي يتمّ الاعتراف بها، والافتاف بها والدفاع عنها. إنّ بإمكان الإلهيّ وحده - يمكننا أن نقول بشكل أوضح - تحديد أخلاقيّة شخص ما.

إنّّه في إعلان المسيح لمفهوم الحياة، وفي التصرّ الذي يُقدّمه للقوام الحقيقيّ للإنسان، وفي النظرة الواقعيّة التي يحملها عن الوجود الإنسانيّ، هنا يُدرك القلبُ الباحثُ عن مصيره الحقيقة في صوت المسيح المتكلّم؛ وهنا حيث القلب "الأخلاقيّ" يعي علامة حضور ربّه.

أ (قيمة الشخص

إنّ عاملاً أساسياً في نظرة يسوع المسيح هو وجود واقع في الإنسان أعلى من أيّ واقع آخر يخضع للزمان والمكان. والعالم بأسره لا يساوي أصغر إنسان؛ ليس لهذا مثيلاً في الكون كلّ، من أول لحظة الحبل به وحتى آخر خطوة من شيخوخته المتداعية. فكلُّ إنسان يمتلك مبدأ متفرداً لا يمكن اختزاله، وهو أساسٌ لحقوق لا مساومة عليها، إنّه مصدرُ قيم.

لا يمكن الالتباس (كما نحن معرّضون لفعله بتأثير العقليّة السائدة) بين القيمة وردود الفعل التي ننقاد للأخذ بها. بهذا الشكل، هناك توجه للانتقاص من قيمة الإنسان واختزالها بالعبارات السائدة في عقليّة البيئة التي يعيش فيها.

وبالعكس، يتمتّع الإنسان بقيمة وحقّ من صُلب نفسه، ولا يُمكن لأحد أن يمنحه إياه أو ينتزعه منه. فالقيمة تتضمن العلة، والهدف لفعل ما، و"ما يستحقّ العمل لأجله"، أو الوجود لأجله. إذن، أن يكون الإنسان مصدرًا للقيم معناه أن يمتلك في نفسه هدفَ عمله هو.

لهذا كلّ يُبرهن يسوع في وجوده عن شغفٍ بالفرد وعن اندفاع لسعادته يحملنا على اعتبار قيمة الشخص شيئاً لا يُقاس ولا يُنتقص. إن مسألة وجود العالم هي سعادة كل إنسان. "ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كلّ وخسر نفسه؟ وبماذا يفدي الإنسان نفسه؟"^{١٤٦}

لا طاقة ولا رقة حبّ أبويّ أو أموميّ تملّكت أبداً قلب الإنسان أكثر من هذه الكلمات التي نطق بها المسيح المولع بحياة الإنسان.

على كلّ حال، إنّ الإصغاء إلى هذه التساؤلات الأخيرة التي طرحها يسوع تمثّل أولّ طاعة لطبيعتنا. فإذا صمّمنا آذاننا عنها، حرّمنا أنفسنا من أكثر الخبرات الإنسانيّة معني. لا يمكننا عندها حبّ الذات ونصبح غير

قادرين على حب الآخرين. فالدافع الأساسي إذن إلى حب أنفسنا وحب الآخر هو سرّ الأنا؛ وكل مبرر آخر هو مقدمة لهذا.

ب) الاعتمادية الأصلية

لقد قلنا إنّ قيمة الشخص كما حدّدناها هي تأكيد يتوافق بعمق مع طبيعتنا. ولكن، لنسأل أنفسنا على ماذا تتأسس؟ إذا لم يكن واضحاً على ماذا تتأسس قيمة ما، فسيتمّ نكرانه دون انتباه. وبديهيّة الحياة، بعد الوجود فوراً، هو أنّه قبل أن تكون لنا الحياة لم تكن لنا. ولهذا نحن نعتمد على سوانا.

كيف نعلّل إذن التأكيد الشغف والمتطلب الذي يأتي من يسوع حول القيمة المطلقة للفرد، إن لم تكن موجودة من قبل، وإذا ظهرت في العالم مثل زبد البحر الذي يذوب في العالم، وإذا كانت ظاهرة آتية من الماضي، نتيجة معطيات بيولوجية سابقة ومصيرها الفناء؟ كيف يمكن ألا تكون قيمة الإنسان وحقّه في المساهمة باندفاع الواقع فقط، كما هي قيمة الإصبع بصفته جزء من الجسم، وخارجاً عنه ليس له من قيمة؟

يُظهر يسوع في الإنسان واقعاً لا يأتي من حيث يأتي الإنسان ظاهرياً، وهو واقع له علاقة مباشرة وحصرية مع الله.

هذه هي العلاقة السريّة الشخصية التي تخصّ حتى أصغر كائن بشريّ: "إياكم أن تحتقروا أحداً من هؤلاء الصغار. أقول لكم: إنّ ملائكتهم في السماوات يشاهدون كلّ حين وجه أبي الذي في السماوات".^{١٤٧} ومحتوى هذه العلاقة التي تمثّل "كنزاً مدفوناً في حقل، وجده رجل فخبّاه، ومن فرحه مضى فباع كل ما يملك واشترى ذلك الحقل؛ أو "لؤلؤة

ثمينة"، ولهذا قام أحدهم "وباع كل ما يملك واشتراها"^{١٤٨}. هذه العلاقة هي الموضوع غير القابل للانتقاص لمعرفة غير قابلة للاستنتاج: "ما من أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن شاء الابن أن يُظهره له"^{١٤٩} أو، في مكان آخر، "طوبى لك يا سمعان بن يونا، لأنّ لا اللحم ولا الدم أظهر لك ذلك، ولكن أبي الذي في السموات".^{١٥٠} إنّ المحبة، وهي أسمى تعبير الوعي الذاتي والامتلاك الذاتي للإنسان، أي للحرية، هي أيضاً التعبير المناسب لتلك العلاقة: "يا معلّم، ما هي أعظم وصيّة في الشريعة؟ فأجابه يسوع: "أحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل عقلك. هذه هي الوصيّة الأولى والعظمى. والوصيّة الثانية مثلها أحب قريبك مثلما تحب نفسك".^{١٥١} وهكذا فإنّ معنى حياة الإنسان، والمصير الفريد جدّاً والشخصي التي يُعاش فيها يتعلّق بذلك الحبّ الكليّ الفرادة والشخصي، كما ينيرنا يسوع حول المعيار الأسمى للدينونة الأخيرة.^{١٥٢}

هذه العلاقة غير القابلة للانتقاص لها قيمة لا يمكن بلوغها ولا التهجّم عليها من قبل أيّ نوع من التأثيرات. إنّ "التطويبات" هي نشيدٌ لتلك الحرية ولتلك الكرامة.^{١٥٣} لكنّ هذا النشيد يجد إثباته وشرحه الجذّاب في ذلك الاستسلام الكليّ لله الذي يطلبه المسيح بنعمه وقوّة لا مثيل لها من تلاميذه^{١٥٤} وفي إرساله الرسل للتبشير: "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن ليس لهم سلطاناً أن يقتلوا النفس. أمّا يُباع عُصفوران بدينار واحد؟ ومع ذلك لا يقع واحد منهما إلى الأرض إلاّ يعلم أبيضكم السماويّ. أما أنتم، فاشعر رؤوسكم معدود كلّها. لا تخافوا: أنتم أفضل من عصافير كثيرة! مَنْ اعترف بي أمام الناس، أعترف أنا به أمام أبي الذي في السماوات؛ ومن أنكرني أمام الناس أنكره أمام أبي الذي في السماوات".^{١٥٥}

هذه العلاقة الفريدة، من حيث أنّها معروفة ومُعاشة، هي التدنّين.

إنَّ يسوع، في حياته الأرضية، قد ركّز على هذه المسألة لأنّه، ومن دون تحديدها أو مقاربتها، ليست للفرد أيّ فرصة في الخلاص أي في "صَوْن" نفسه: فهو سيصبح عبداً لردود فعل تغمّره، تجعله عنيفاً نحو ذاته ونحو الآخرين، أو سيصبح شيئاً فشيئاً عبداً لحكّام ظالمين. هذا يعني أنّه لا يمكن أن يكون للفرد، بدون هذه العلاقة، وجهاً خاصاً به، لا يتحطم، وأبديّ المدى؛ أي ليست لديه إذن إمكانية أن يكون "شخصاً"، أي ليمثّل دوراً لا يُبسّ فيه في مسيرة العالم، ويكون رائداً في التدبير الكليّ.

إنّه اكتشاف "الشخص" الذي يدخل العالم مع يسوع: وذلك الشغف بالشخص هو الذي يجعل يسوع رسولا شغفاً بتبعية كل فرد للآب تبعيةً فريدةً وكاملة: "أبانا الذي في السماوات..." أنت الذي تلدّني بكليتي من عمق أعماق نفسي (لأن "السما" هي شبيهة بعمق أعماق الخلق، كما يلاحظ غراتري في تعليقه على إنجيل متى)^{١٥٦}.

لا ينبع التدنّ المسيحيّ كنهية فلسفية، بل من تشديد يسوع المسيح الحارّ الذي كان يرى في العلاقة مع الآب الفرصة الوحيدة لإنقاذ قيمة الفرد. ينبع التدنّ المسيحيّ كحالة وحيدة للإنسانيّ.

إنّ خيار الإنسان هو: إمّا إدراك نفسه حرّاً من كل الكون وتابعاً لله، أو متحرراً من الله فيُصبح عبداً لكلّ الظروف.

لقد شدّد يسوع كثيراً على موضوع أثار اضطراب مدّعي الطهارة. إذ قال: أصغوا إليّ، من الأفضل لكم. "إذا شكّكتك رجلك فاقطعها، لأنّه خيرٌ لك... إذا شكّكتك يدك فاقطعها، لأنّه خيرٌ لك... إذا شكّكتك عينك فاقطعها، لأنّه خيرٌ لك..."^{١٥٧} إن أصل كلمة "شكّك" في اليونانية تشمل معنى المصيدة، أو المكيدة. يحذّرنا يسوع بألا ننخدع في ما يتعلّق بموضوع العلاقة النهائية مع الله: هذه العلاقة؛ أي إنّ التدنّ هو من الأفضل لخلاص الشخص.

نلاحظ أن لا شيء أكثر فَرِيسِيَّة من تمزيق ثيابنا من أجل واجب تمّ مقابل الحصول على مكافأة، ولا شيء أكثر عبوديَّة من القيام بالواجب من أجل الواجب. إنّ توافق الواجب مع السعادة هو الشيء الأكثر عملائيَّة التي تلمح لنا بها الطبيعة، ولو بشكل تقريبيّ.

وفي الختام: إنّ سُمُوّ الأنا الإنسانيّ على الواقع الذي ينغمس فيه لا يمكن شرحه بكونه مُنغمساً فيه. من ناحية أخرى، من الواضح أنه لم يصنع نفسه بنفسه. ويبقى البديل على هذا الشكل: إنّ تفوّق الأنا يُبنى على التبعيَّة المباشرة للعلّة التي تعطيه النشأة وهي أصل كلّ شيء، أي الله. إنّ عظمة وحرّيّة الإنسان يأتيان من التبعيَّة المباشرة لله. وهو شرطٌ لكي يحقّق الإنسان نفسه ويثبتها. فالتبعيَّة لله هي أول شروط المصلحة الإنسانيَّة.^{١٥٨}

ولهذا، نكرّر القول إنّ التبعيَّة المعاشة لله، أي التدين، هو التوجيه الأحبّ الذي أعطاه يسوع في إنجيله.

(٣) الوجود الإنسانيّ

إنّ التشديد على التدين هو من أولّ واجبات المرّبي، إي الصديق، الذي يحبّ ويريد مساعدة الإنسان في مسيرته نحو مصيره. والإنسانيّ غير موجود أصلاً لو لم يكن بالفرد، بالشخص. كلّ هذا التشديد هو نداء يسوع المسيح المتكرّر. فلا يمكننا البدء بفهم المسيحيَّة إلا إذا انطلقنا من مبدأ أنّها شغف بالفرد. إنّ الذكاء الإنسانيّ الذي امتلكه يسوع وأثبتته يقوده إلى دفع الإنسان بقوة نحو أصله، نحو ما يعطي معني ونكهة لحياته، نحو التدين. فمن دونه ماذا يبقى للإنسان؟ باطل الأباطيل، وفراغ مُطلَق.

إنّ التدين في ميله لعيش كلّ الأعمال على أنّها متعلّقة بالله تُسمّى أخلاقيّات: "ليس كل من يقول لي: يا ربّ يا ربّ! يدخل ملكوت

السموات، بل من يعمل بمشيئة أبي الذي في السماوات".^{١٥٩} وكما أنَّ إرادة الآب هي في سرّ المسيح، يضيف بحقّ ناسباً كلّ شيء إلى حضوره : "فمن سمع كلامي وعمل به يكون مثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وفاضت السيول وهبّت الرياح على ذلك البيت، فما سقط، لأنّ أساسه على الصخر. ومن سمع كلامي هذا وما عمل به يكون مثل رجل غيبيّ بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وفاضت السيول وهبّت الرياح على ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً".^{١٦٠}

إنّها لالتباسٌ مليءٌ بالكذب تلك الأخلاقيّة التي لا تنطلق من شيء أعظم من الأنا، ولا تكون هي الأنا: إنّها لشكلٌ خادعٍ لفرض نفسنا على الجميع مطابقةً الواجب مع الضمير. فيما الضمير هو المكان الذي ندرك فيه التبعيّة، مكانٌ يطفو فيه توجيةٌ من "آخر". هكذا علّمنا يسوع الإنسان: "أنا لا أقدر أن أعمل شيئاً من عندي: فكما أسمع من الآب أحكم وحكمي عادل، لأنني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني".^{١٦١} على هذه الفرضيّة وحدها تؤسّس حرّيّة الضمير. فالحرّيّة، بالفعل، هي مسؤوليّة أي جوابٍ إلى "آخر". وهذا ينقذ الحرّيّة، يحرّر الحرّيّة من المطابقة مع ردّة فعل داخلية أو - كما يحدث دائماً في يومنا - موجهة، آتية من الخارج، أي من عنفٍ ومن "سلطة" سائدة .

٤) وعيٌ يعبر عن ذاته بسؤال

إنّ التعبير عن التدين والأخلاقيّة كوعي التبعيّة لله يُدعى الصلاة.

أ) الصلاة هي دراية أساسيّة بذاتنا، كدراية بتبعيّة في قوامها. إنّها تمثّل نسيج الشعور بالذات الذي كان لدى المسيح، كما يظهر في فصول القديس يوحنا الرائعة: "أبي يعمل فيّ كلّ حين، وأنا أعمل مثله... الحقّ الحقّ أقول

لكم: لا يقدر الابن أن يفعل شيئاً من عنده بل يعمل ما رأى الآب يعمل. فما يعمل الآب يعمل مثله الابن [...] فكما أن الآب هو في ذاته مصدر الحياة، فكذلك أعطى الابن أن تكون مصدر الحياة [...] لي أعمالي التي أعطاني الآب أن أعملها، وهذه الأعمال التي أعملها هي نفسها تشهد لي بأن الآب أرسلني [...] فما نزلت من السماء لأعمل ما أريده أنا بل ما يريده الذي أرسلني [...] وكما أنا أحيأ بالآب الحي الذي أرسلني [...] أنتم تعرفوني وتعرفون من أين أنا، لكني ما جئت من عندي وذلك الذي أرسلني هو حق وأنتم لا تعرفونه وأما أنا فأعرفه، لأنني من عنده جئت وهو الذي أرسلني [...] متى رفعت ابن الإنسان عرفتم أنني أنا هو، وأني لا أعمل شيئاً من عندي ولا أقول إلا ما علمني الآب [...] أنا أتكلم بما رأيته عند أبي [...] لو كان الله أباكم لأحببتموني لأنني خرجت وجئت من عند الله و ما جئت من تلقاء ذاتي، بل هو الذي أرسلني [...] لو مجدّتي نفسي، لكان مجدي باطلاً. أبي هو الذي يمجّدني. وهو الذي تقولون إنه إلهنا. أنتم لا تعرفونه، أما أنا فأعرفه. إذا قلت إنني لا أعرفه كنت مثلكم كاذباً. ولكني أعرفه وأعمل بكلامه" ١٦٢.

إنّها هاوية هذا الانتماء، هاوية هذه التبعية الكلية التي كانت تفرض المحتوى على الأوقات التي تكلم عنها غالباً الإنجيل: "ولما صرفهم صعد إلى الجبل ليصلي في العزلة. وكان وحده هناك عندما جاء المساء" ١٦٣. ولكن في ديمومة هذه الصلاة بالضبط - "صلّوا دائماً" ١٦٤ - وذلك لأن إدراك المصدر الذي لا ينضب في كينونته الذاتية كانت موجودة داخل يسوع، كان يمكنه القول: "لأنني لست وحدي، بل أنا والآب الذي أرسلني [...] والآب الذي أرسلني هو معي وما تركني وحدي لأنني في كل حين أعمل ما يرضيه" ١٦٥.

يتردد صدى كلّ هذه التلميحات في فصول حديث العشاء السريّ. وتوجز الصلاة الختامية المضمون المنير والسريّ للصلة الواعية المستمرة بين يسوع والآب: "كلّ ما هو لي فهو لك وكل ما هو لك فهو لي" ١٦٦.

(ب) في الصلاة ينبعث الوجود الإنسانيّ ويكتسب متانة. هكذا تعلّمنا شخص يسوع.

إن التنبّه إلى تبعيتنا الأصليّة لا يعني ببساطة وعياً لماضٍ، وعياً لمبادرة خلقنا. وعلى العكس، إنّ تبعيّة الإنسان دائمة، في كل لحظة وفي كل تلاوين تصرفاتنا. فكلّ جزء من وجودنا يجد في سرّ الكائن الإلهيّ كليّة أصله؛ فالله هو أبونا الحقيقيّ، وأبّ ذلك الجيل المستمرّ الذي هو وجودنا. بما أنّه استطاع أن يؤكّد بالذات: "أنا والآب واحد" ١٦٧ واستطاع أيضاً أن يؤكّد "أما بدوني فلا تقدرون على شيء" ١٦٨.

نصل هكذا للاستنتاج بأنّ الإنسان لم يكن موجوداً فحسب، بل لم يكن ليوجد لو كان متعلّقاً بذاته، وهو لا يعمل نفسه بنفسه في أيّ لحظة. إذا كان الوعي هو شفافيّة ماهيّة الإنسان فالوعي الذاتيّ يحمله على الاستنتاج بأنّ الإنسان في كل لحظة محدّدة يصنعه "آخر"، أنّ أناه من صنّع "آخر". وإذا استمرّ حتى اللانهاية في تحليل نفسه فسيصل حتماً إلى هذه النتيجة: إنّ الحياة تعلقٌ مُطلقٌ بآخر. "من منكم إذا أهتمّ يقدر أن يزيد ساعة واحدة على حياته؟ فإذا كنتم تعجزون عن أصغر الأمور فلماذا يهتمّكم الباقي؟ [...] فهذا كلّه يطلبه أبناء هذا العالم، وأبوكم السماويّ يعرف أنكم تحتاجون إليه" ١٦٩.

تعبّر الحياة إذن قبل كلّ شيء عن نفسها كوعي للعلاقة مع الذي صنعها، والصلاة هي التنبّه إلى أنّ الحياة قد "صُنعت" في هذه اللحظة. هذه

هي روح الصلاة: اندهاش ورع، واحترام، وخُضوع مُجِبّ في هذا التصرف الوجدانيّ. إنّ اعتبار الواقع كشيء فتّان هو أولى درجات هذا التصرف التعبديّ، وهو التصرف الأكثر طبيعياً في الإنسان، والمظهر الأكثر أساسية في إدراكنا.

ولكن الدهشة والخضوع والفتنة تصبح شفافية في حميمية لا توصف في مثل وتعليم يسوع: "وكان يسوع يصلي في أحد الأماكن فلما أتم الصلاة قال له واحد من تلاميذه "يا ربّ، علّمنا أن نصلي [...]" فقال لهم يسوع: متى صليتم فقولوا: أبانا..."^{١٧٠}

بهذا الشكل فقط نقضي على العزلة: في اكتشاف الكائن الإلهيّ كمحبّة تهب ذاتها باستمرار. يتحقّق الوجود جوهرياً كحوار مع "الحضور" الكبير الذي يصنعه، مع رفيق لا يفارقنا. الرفقة هي في الأنا، ولا شيء نفعله لوحدها. فكلّ صداقة إنسانية هي صدى لهيكلية الكيان الأصليّة، وإذا أنكرها فإنه يُخاطر بحقيقته. وتصبح العائليّة والحوار مع الذي خلقنا في كل لحظة عبر يسوع-عمانوئيل-"الله معنا" ليست فقط شفافية منيرة، بل رفقة تاريخيّة.

يتميّز الإنسان عن سائر المخلوقات بكونه واعٍ لما يعيشه؛ هذا الوعي لن يكون كاملاً إذا لم يتعمّق إلى "الأساس" الذي تنبع منه الحياة؛ لا يأخذ مجال التأمل كلّ بعده إذا لم يصل إلى "النقطة" التي منها يتدفق الأنا في بادرته. وهكذا فالصلاة ليست بادرة على حدة، بل هي تحقّق البعد الأوّل لكلّ عمل. سيكون فعل الصلاة ضرورياً لكي نتمرّس على وعي كلّ فعل. ولهذا فإن أعلى مستوى للصلاة ليست النشوة الروحيّة، أي وعي العمق لدرجة فقدان الإحساس بالأشياء العاديّة؛ بل هو رؤية العمق كما نرى الأشياء العاديّة.

كيف يمكننا أن نترجم هذا وجوديًا؟ يمكن ترجمة مثال يسوع وجوديًا هكذا:

"صلّ قدر استطاعتك وأكثر". إنها صيغة الوعي أمام "المثال"؛ إنها صيغة الحرّية للإنسان السائر.

جـ) ولكنّ التعبير الأمثل للصلاة هو في كونها سؤالاً. والتعبير الأصليّ للوجود الإنسانيّ هو إذن سؤال. هنا تكمن كل كرامة الضمير والعاطفة. "وقال لهم يسوع: طعامي أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني وأتم عمله".^{١٧١} كان واقعه الإنسانيّ في علاقته مع الآب يستنفد نفسه في هذا السؤال؛ ففي صلاة العشاء السريّ، وفي كلّ عظمة روحه اللامحدودة، استعطى إتمام التدبير "المكتوم طول العصور".^{١٧٢} "هكذا تكلم يسوع. وبعدها رفع عينيه إلى السماء وقال: "يا أبّ حانت الساعة، مجدّ ابنك ليمجدّك ابنك [...] كي يهب الحياة الأبدية لمن وهبتهم له. هذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الله الحقّ وحدك ويعرفوا يسوع المسيح الذي أرسلته [...] أنت وهبتهم لي، أيها الآب، وأريدهم أن يكونوا معي حيث أكون ليرؤوا ما أعطيتني من المجد لأنك أحببتني قبل أن يكون العالم".^{١٧٣}

حدّد يسوع بقوة في فقرتين موضحتين ومؤثرتين في الإنجيل طبيعة السؤال الذي هو الصلاة، بالتحديد كمبادرة واقعية سامية تجاه الحالة الإنسانية. هاكم الفقرة الأولى: "من منكم له صديق و يذهب إليه في نصف الليل، ويقول له: يا صديقي أعرنني ثلاثة أرغفة، لأن لي صديقاً جاءني من السفر ولا خبز عندي أقدمه له، فيجيب صديقه من داخل البيت: لا ترعجني! الباب مقفل، وأولادي معي في الفراش، فلا أقدر أن أقوم لأعطيك. أقول لكم: إن كان لا يقوم ويعطيه لأنّه صديقه، فهو يقوم

ويعطيه كل ما يحتاج إليه لأنه لَجَّ في طلبه. لذلك أقول لكم: اسألوا تنالوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم. فمن يسأل ينل، ومن يطلب يجد، ومن يدق الباب يُفتح له. فأَيُّ أَبٍ منكم إذا طلب منه ابنه رغيفاً أعطاه حجرًا؟ أو طلب من سمكة أعطاه بدل السمكة حيّة؟ أو طلب منه بيضة أعطاه عقرَبًا؟ فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون كيف تحسنون العطاء لأبنائكم، فما أولى أباكم السماويّ بأن يهب الروح القدس للذين يسألونه؟" ^{١٧٤} وهذه هي الفقرة الثانية حيث يتم التعبير بشغف أكبر عن نفس الطلب أي أن يعيش الإنسان وجوده كاستعطاء، طلب متأكد من الجواب الرحيم: "كان في إحدى المدن قاضٍ لا يخاف الله ولا يهاب الناس وكان في تلك المدينة أرملة تتردد إليه وتقول له: أنصفني من خصمي! فكان يرفض طلبها، ولكنه بعد مدة طويلة قال في نفسه: مع أنني لا أخشى الله ولا أهاب الناس، فسأنصف هذه الأرملة لأنها تزعجني، وإلا ظَلَّتْ تحيى وتضايقني. وقال الرب يسوع: "اسمعوا جيدًا ما قال هذا القاضي الظالم، فكيف لا ينصف الله مختاريه الضارعين إليه ليلَ نهار؟ وهل يُعطى في الاستجابة لهم؟ أقول لكم: إنه يُسرع إلى إنصافهم، ولكن، أيجد ابن الإنسان إيمانًا على الأرض يوم يجي؟" ^{١٧٥}

يحدّد السؤال الرهيب الأخير مدى ألم المسيح تجاه العالم. إذا نسي الإنسان ما تعطيه الصلاة من قوام، أي وعي التبعية الكاملة وحالة التساؤل التي لا مفرّ منها، فإنّه يضيّع نفسه ويرفض الخلاص

وبالفعل، لا يمكن للتبعية الأخيرة الواضحة والكاملة إلا أن تُترجم وجوديًا إلى سؤال. فالذي يصنعنا يصنعنا كحياة: والتنبيه إلى الذي صنعنا يتطابق مع طلبنا أن يجعلنا حياة. نحن صُنْعنا كموّدة وعطش للحياة. وإذا كان الإدراك الكبير، الذي تكلمنا عنه، لا يُترجم إلى مطلب فإنه ليس إدراكًا صحيحًا. فالصلاة هي فعل طلب فقط، طلب ينطلق من أيّ شيء.

وظاهرة حاجتنا - مهما كانت - تردّنا إلى التبعيّة، وهي منطلق للتعمق في وعي التبعيّة لله: لم يُهمل يسوع أيّ طلب. لهذا يجوز طلب أيّ شيء، مع مراعاة ذلك البند الضمني الذي عبّر عنه يسوع في بستان الزيتون: "ولكن لتكون لا إرادتي بل إرادتك"^{١٧٦}. إرادته تعني اكتمالي، السعادة الأسمى، وكلّ طلب لي هو وفقها. وكما أنّ أصلي في يده، فهكذا نهايتي في يده.

(٥) شريعة الحياة

أ) وهب الذات

إذا كان الإنسان ككائن (كشخص) هو أعظم من العالم، فهو كموجود (كديناميّة حيّة) هو جزء من الكون. ولهذا فإن هدف فعله، إذا كان في آخر الأمر هو اكتماله، أي سعادته، فإنه مدعو بعدها لخدمة هذا الكلّ الذي هو جزء منه. فبصفته جزءاً من العالم يجب على الإنسان أن يخدمه، حتى ولو كان هدف الكون مساعدته ليصل بشكل أفضل إلى سعادته.

سيُعطي يسوع صورة مؤثّرة عن مصيره عند إعلانه مصيره الممجّد من خلال الصليب قبل أيّام معدودة من موته: "جاءت الساعة التي فيها يتمجّد ابن الإنسان. الحقّ أقول لكم: إنّ حبة الحنطة إن لم تقع في الأرض وتُمتّ، تبقى وحدها. وإذا ماتت أعطت حُبّاً كثيراً. من أحبّ نفسه خسرها، ومن أنكر نفسه في هذا العالم حفظها للحياة الأبدية. من أراد أن يخدمني، فليتبّعني، وحيث أكون أنا يكون خادمي. ومن خدمني أكرمه أبي".^{١٧٧}

تُعمّق صوراً أخرى لعرض المسيح في ذاكرتنا مثلاً البذرة. ربّما كانت الصورة الأكثر حضوراً في ذاكرتنا هي التي تتعلّق بالراعي: "أنا الراعي الصالح [...] وأضحّي في سبيل خرافي"^{١٧٨}. ولكن يسوع في عظة كفرناحوم، عند

تشبيهه الخبز الذي يؤكل والشراب الذي يشرب بكلّ واقع شخصه الحاضر في حياة الإنسان، فإنّه يتوصّل إلى التعبير الأسمى لإرادة تفانيه: "ما أعطاكم موسى الخبز من السماء. أبي وحده يعطيكم الخبز الحقيقيّ من السماء لأنّ خبز الله هو الذي ينزل من السماء ويعطي العالم الحياة". فقالوا له: "يا سيّد، أعطنا كلّ حين من هذا الخبز". فقال لهم يسوع: "أنا هو خبز الحياة، من جاء إليّ لا يجوع، ومن آمن بي لا يعطش أبداً [...] مَنْ أكل جسدي وشرب دمي فله الحياة الأبدية [...] جسدي هو القوت الحقيقيّ ودمي هو الشراب الحقيقيّ".^{١٧٩} وفي القدّاس الإلهيّ تتكرّر أعظم كلمات يسوع: "خذوا فكلوا، هذا هو جسدي الذي يُبذل من أجلكم"^{١٨٠}

يتحرّر الوجود الإنساني في خدمة العالم، ويكمّل الإنسان ذاته باذلاً نفسه ومضحياً.

إنّ أفضل تعليق على هذا المبدأ المسيحيّ هي كلمات آنا فركور أمام جثمان ابنتها فيولين، في "بشارة مريم" لبول كلوديل: "هل يمكن أن تكون نهاية الحياة العيش؟ هل سيبقى أبناء الله مسرّري الأرجل على هذه الأرض البائسة؟ لا العيش، بل الموت [...] وإعطاء كل ما لدينا بفرح. هنا تكمن السعادة والحرية والنعمة والشباب الأبديّ! [...] ما قيمة العالم بالنسبة للحياة؟ وما قيمة الحياة إن لم تُعطى؟"^{١٨١}

إنّ الوجود الإنسانيّ هو إفناء الذات "من أجل" شيء ما. ولكن ما طبيعة هذا الإفناء؟ ينكشف لنا في سرّ الثالوث الأقدس جوهر الكينونة كعلاقة؛ ونضيف الآن: تُطرح علينا كعطية. هذه هي عظمة الإنسان: وعلى مثال "الكائن" الذي خلقه فحياته هي عطية؛ إنّه مُشابه لله. وهكذا، يجب أن يُصبح إفناء ذاته عطية: إنّه المخلوق الوحيد الذي يُمكنه أن يكون واعياً لهذا العنصر الهيكليّ للواقع.

إنّ شريعة الوجود الإنسانيّ هي المحبة في واقعها الديناميّ، أيّ التقدم، وهب الذات. كما قال يسوع: "من أراد أن يخلّص حياته يخسرها، ومن خسر حياته في سبيلي يخلّصها"^{١٨٢}. وهكذا نشهد تشديدًا على مُفارقة هذه الشريعة: السعادة من خلال التضحية. وبقدر ما قبل الإنسان بهذا الأمر اختبر في هذا العالم اكتمالا أكبر. كان يسوع يدعوها "سلامًا". وهكذا تطرح علينا شخصيّة إنسانيّة كنتاج لمرَكِّبين: التضحية والمحبة. "ما من أحد ترك بيتًا أو إخوةً أو أخوات أو أمًّا أو أبًا أو زوجة أو أولادًا أو حقولا من أجلي ومن أجل البشارة، إلّا نال في هذه الدنيا، مع الاضطهادات، مئة ضعف من البيوت والإخوة والأخوات والأمّهات والأولاد والحقول، ونال في الآخرة الحياة الأبديّة"^{١٨٣}.

ليست الشريعة، أيّ شريعة، إلّا وصفا لآليّة مستقرّة. حتّى الإنسان بصفته إنسانًا (كائنًا واعيًا وذا إرادة) هو آليّة ثابتة أساسيّة. وما يُسمّى بالشريعة الأخلاقية يُعطينا هذا الوصف للاستقرار الأساسيّ.

بأيّ معيار يحدّد الإنسان شريعة عمله هذه؟ لكي نصف آليّة ما يجبُ النظر أوّلا إلى دالّتها وغايتها. فمقصد الأنا هو الكلّ، وشريعته هي وهب ذاته للكل. والإنسان، خارج وعي الكلّ، سوف يحسّ نفسه أسيرًا وسئمًا.

يتوجّب علينا عند هذا الحدّ ملاحظة أنّ هدف الحال الإنسانيّة يتمّ بلوغه بالوسائل المتوفّرة لدينا، في "كيف نكون". نلاحظ إذن عاملين في الديناميّة الإنسانيّة كما يعرضها لنا التراث المسيحيّ.

(١) الغريزيّة. هي ما أجده فيّ، ما يحدّدني، ما يجذبني ويحثّني. هذا بالضبط ما يدفع الإنسان إلى خدمة الواقع: أي مجموعة معطيات عليه أن يأخذها بعين الاعتبار.

٢) هناك هدفٌ لهذا الحافز الطارئ، لهذا الجاذب والحث. ولهذا فإنَّ العامل الثاني هو وعي الهدف الخاص بهذه الحزمة من الغريزة. وبالفعل، إنّ أحد عوامل ديناميّة الطبيعة الإنسانيّة ليس إلحاحها فحسب، بل أيضًا إدراك هدف هذا الإلحاح عينه.

فالإنسان، وبعكس الحيوانات والأشياء الأخرى، مُدركٌ للعلاقة الموجودة بين غريزته الطارئة وكلّ شيء، أي مجمل الأشياء. إنّ تهذيب الغريزة لأجل الهدف، إي لمُجمل الأشياء، هو عطاء الذات الأساسي لكلّ شيء: هذا ما نسّميه الواجب، وجوهر الواجب لا يُمكنه إلا أن يكونَ محبّة، أي تسليم الذات.

ربّما يتضمّن الفصل التاسع عشر من إنجيل متى التمثيلَ الأوضح لصورة تصرّف الإنسان الأخلاقيّ هذه. إنّ الجواب على مسألة عدم انحلال الزواج له نفس تعليل العُذريّة: التفاني "من أجل ملكوت السماوات"، خدمة التدبير الكبير. إنّ الإجراء الذي تتطلّبه الطبيعة "منذ البدء" تحثّ على إعطاء الذات من أجل كلّ شيء، كما تؤكّدها إرادة عيش العفّة المتجدّرة لدى من "خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات"^{١٨٤}.

ولكن ليس من الإنسانيّ إعطاء الذات إلا لشخص واحد، وليس إنسانيًّا الحبّ إلا لشخص واحد. "الكلّ" في نهاية المطاف هو تعبير عن شخص: الله ("لتكن مشيئتكَ"). وكل واجب هو إذن وعي لإرادة الله ("ليأت ملكوتك").

إنّ تصرّف الإنسان في العالم يتمثّل في مستواه الأكثر وعيًا بالصلاة. بهذا المعنى، ليس هناك أيّ شيء دنيويّ، فكّله مشاركة وحوار في هيكل الذات الإلهيّة الكبير، هيكل الله.^{١٨٥}

ب) الفوضى الإنسانية

ليس بمقدور الإنسان أن يعيش بشكل كامل تبعيته "للذي" هو حقيقته وانعكاسها في الحياة كَهبة وحبّ وخدمة. فوجدانه مغشّى وإرادته سائمة بشكل لا يوصف لواجب الصلاة، يعيش أنانيّة غريبة ولهذا، وعلى المدى الطويل، بدلا من أن ينتظم إلى الكل، يحاول أن ينظّم الكلّ إليه؛ وبدلا من أن يعطي ذاته يحاول أن يأخذ، وبدلا من أن يحبّ يحاول أن يستغلّ.

يتعلّق هذا الأمر الواقع بحالة أصليّة فطريّة. فالتقليد المسيحيّ يرّده إلى فوضى ورثها الإنسان منذ بدء الجنس البشريّ، وتمّ تبنيها بشكل مسؤول. إنّها تُوجّه مناخ العالم الإنسانيّ في اتجاه معاكس للتدبير الإلهيّ: "به كان العالم وما عرفه العالم..." [...] اليوم دينونة هذا العالم و اليوم يُطرد سيّد هذا العالم؛ [...] إن أبغضكم العالم، فتذكّروا أنّه أبغضني قبل أن يُبغضكم" ١٨٦.

هذا ما يسمّيه التقليد المسيحيّ "الخطيئة الأصليّة". ليس للإنسان الطاقة الكافية لتحقيق ذاته. وبقدر ما كان الإنسان حسّاسًا وواعيًا، أمكنه أن يكون إنسانًا، وبقدر ما يلاحظ بعدم استطاعه أن يكون كذلك.

إنّ الصرخة التي يُنهي بها القديس بولس استنتاجه في رسالته إلى الرومانيّين هي بالضبط التساؤل الإنسانيّ الذي جوابه يسوع المسيح: "الويل لي أنا الإنسان التعسّ! فمن ينجّيني من جسد الموت هذا؟" ١٨٧ هذه الصرخة هي الأصل الوحيد لكي يستطيع الإنسان الأخذ بعين الاعتبار بجديّة اقتراح يسوع المسيح. وإذا كان الإنسان لا يفهم السؤال، فكيف به فهم الجواب؟ لكي أكون أنا ذاتي، أنا بحاجة لآخر: "بدوني لا تستطيعون عمل شيء". ١٨٨ "لقد علّمنا يسوع بأنّ من يقبل رسالته الخلاصيّة لا يمكنه تحاشي مواجهة

مسألة المصارحة مع الذات، وتحاشي واقعية اعتبار الإنسان: لا يمكننا أن نكون ذواتنا لوحدها. إنّ الرفقة، تلك التي تُسمّى من بعد بالجماعة المسيحية، أساسية لمسيرة الإنسان. "لا يأتي أحد إلى الآب إلاّ بي"^{١٨٩}. ومرة أخرى يعني هذا أنّ الإنسان لا يمكنه تحقيق ذاته إلاّ بقبول حُبّ الآخر - "آخر" له اسم محدّد، مات من أجلك خارج إرادتك -: "ما من حُبّ أعظم من هذا: أن يبذل الإنسان حياته من أجل أحبائه"^{١٩٠}. وقال عن نفسه: "أنا هو القيامة والحياة"^{١٩١}.

(ج) الحرّية

(١) هذا الفداء لا يتحقّق بشكل آليّ: إنه لمن الأهميّة بمكان قبول المساعدة التي يقدمها لنا يسوع للتعاون بشكل فعّال. وهذا يأتي عن طريق الحبّ الحرّ.

مع حرّية المسيح الإنسان ("والآب يُحبّني لأنني أبذل حياتي حتى استردّها من جديد. ما من أحد ينتزعها مني، بل أنا أبذلها راضياً")^{١٩٢} يجب أن تتوافق حرية الإنسان التي تقبل به على الدوام ("جاء النور إلى العالم، فأحبّ الناس الظلمة بدلا من النور لأنّ أعمالهم كانت شريرة [...] ولكنكم لا تريدون أن تجيئوا إليّ لتكون لكم الحياة")^{١٩٣}.

(٢) وما هي الحرّية؟

نلاحظ أن الناس ينطلقون من مفاهيم جاهزة ومن تصوّرات عادية، خاصّة بالنسبة للكلمات المهمّة في الحياة. وللوصول إلى تحديد ماهية الحرّية نحتاج إلى مراقبة خبرتنا. إنّها توحى لنا بانطباع عن الحرّية عندما نُرضي رغبة ما. إنّ الحرّية حسب كل طبيعتها، أي كقدرة على الرضى الكامل، تتحقّق في المجال الكلّي لاكتمالنا. الحرية هي القدرة على اللانهاية،

العطش إلى الله. الحرّية هي إذن حبّ لأنّها القدرة على شيء ليس نحن، إنّه آخر.

(٣) لا تملك الحرّية تحت تصرّفها خلال الحياة كامل موضوعها. إنّها ستملكه مستقبلاً. فالمواضيع التي تصادفها مقدّمة، وصدى للهدف. وبقدر ما تكون حياة الحرّية كثيفة كان كلّ شيء فاتنا .

وحيث أنّ كلّ موضوع ليس مناسباً للانفتاح على الحرّية فإنّه لن يشغلها بكاملها. وهنا تكمن إمكانية الاختيار للحرّية التي ليست كاملة بحدّ ذاتها، إذ إنّها منشغلة بمفاتيح غير ملائمة. فإمّا يمكنها الاقتراب من الهدف، أو تقف حيث ترتوي في تلك اللحظة، كونها تميل إلى ما يرضيها أكثر. لكنها في هذه الحالة تتعارض مع ذاتها إذ خلقت من اجل الاكتمال.

(٤) هذا التضارب يساوي مفهوم الشر. من يعمل الشرّ يصبح عبداً لمقياس لم يُخلق من اجله^{١٩٤}.

(٥) إذا لخصنا التراث المسيحيّ حول قيمة الحرّية، نستطيع القول إنّ الحرية هي القدرة التي يمتلكها الكائن الواعي من أجل تحقيق ذاته بشكل كامل. ويتمّ المسار الذي تسلكه هذه الطاقة نحو التحقيق الكامل من خلال الأشياء أو الكائنات التي، وبالرغم من احتوائها على شيء من الهدف (على شيء من الكائن)، لديها القدرة على جذب وحثّ الحرّية إذ تمثّل بالنسبة لها مقدّمة لتحقيق جزئيّ.

لا تتحقق الحرّية بشكل كامل في استيعاب الأشياء، فحاذية الأشياء لا تُشغلها كليّة. وهكذا تبرز إمكانية الاختيار. هذه حرّية، لكنها غير متكاملة، في طور التحقيق.

قد يكون هناك واقع تبدو فيه للضمير الحرّ بعض المفاتيح أقوى نفسياً من مفاتيح وجوديّة (أنطولوجيّة) أقرب إلى الهدف. وهكذا يشعر الإنسان أنّه

في "تجربة": إنه منجذب أكثر نحو كل ما هو بعيد عن اهتمامه النهائي، وهو ما يضعه في حالة تناقض مع ذاته. إذا لم يصمد أمام التجربة، فإن خياره "سيء".

لا يستطيع الإنسان عادةً الصمود وحده لزمن طويل أمام التجربة. ويسوع المسيح هو الكائن الذي يعطيه باستمرار القدرة على الاختيار الصحيح، أي أن يكون حرًا: "إذا ثبتتم في كلامي، صرتم حقًا تلاميذي؛ تعرفون الحق، والحق يحرركم"^{١٩٥}.

(٦) خاتمة

لم يأت يسوع المسيح إلى العالم لكي يحلّ مكان العمل الإنساني، أو مكان الحرية الإنسانية أو ليزيل التجربة الإنسانية - وهي شرط أساسي للحرية -. لقد أتى إلى العالم لكي يدعو الإنسان إلى عمق كل المسائل، إلى هيكلية الأساسية وإلى حالته الواقعية. بالفعل، فإنّ كلّ المشاكل المدعوّ إلى حلّها الإنسان في تجربة الحياة تتعقّد أكثر، بدلا من أن تجد حلا، إذا لم يتمّ الحفاظ على قيم أساسية معيّنة. لقد أتى يسوع المسيح ليدعو الإنسان إلى التدبّر الحقيقي، الذي بدونَه كل ادعاء حلّ هو كذب. فمسألة معرفة معنى الأشياء (الحقيقة)، ومسألة استعمال الأشياء (العمل)، ومسألة الإدراك الكامل (الحب)، ومسألة التعايش الإنساني (المجتمع والسياسة) تنقصها كلّها صياغة صحيحة ولهذا تُنتج فوضى أكبر في تاريخ الفرد والإنسانية في حال لم تُبنى على تدبّر في محاولة إيجاد حلّ ذاتي ("كل من يتبعني، ينال مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية")^{١٩٦}.

ليس من مهمّة يسوع حلّ مختلف المشاكل، ولكن دعوة الإنسان إلى الوضع الصحيح الذي يحاول فيه حلّها. هذا العبء يقع على عاتق التزام الفرد، الذي يكمن معنى وجوده في هذه المحاولة بالضبط.

يفترض المفهوم المسيحيّ للوجود الإنساني ألا تلتزم الجماعة الإنسانية أبدًا بكلّيتها وبحريّتها بالشرط الذي دعا إليه يسوع. ولهذا فإن حياة الإنسانية في هذا العالم ستكون دومًا مؤلمة وفوضويّة، إنّ مهمّة الذين اكتشفوا يسوع المسيح - مهمّة الجماعة المسيحيّة - هي بالتحديد تحقيق حلّ المشاكل الإنسانية بقدر الإمكان على أساس دعوة يسوع.

إن مفهوم الحياة الإنسانية عند يسوع المسيح هو إذن ضغطٌ وصراع ("ما جئت لأحمل سلامًا بل سيفًا")،^{١٩٧} "إنّه سير؛ إنه بحثٌ - بحثٌ عن الاكتمال الذاتي، أي "الذات" الحقيقيّة لكلّ منا.

ليس هناك أمرٌ أكثر تناقضًا مع المسيحيّة من فهم الحياة كشيء مَرَح ومُرضٍ، كإمكانية سعادة عرضيّة. "الويل لكم أيّها الأغنياء، لأنكم نلتم عزاءكم، الويل لكم أيّها الذين يشبعون الآن".^{١٩٨}

يخلق الإقرار بيسوع وإتباعه (الإيمان) تصوّرًا أساسيًا مميزًا يكون فيه الإنسان سائرًا منتصبًا لا يتعب نحو هدف لم يصله بعد، أكيدًا من المستقبل لأنّه كلّه يستند على حضور الله (الرجاء)؛ ففي تسليم الذات والانتساب إلى يسوع المسيح تزهر عاطفةٌ جديدة لكلّ (المحبة)، التي تولّد خبرة سلام، وهي خبرة أساسية للإنسان السائر.

الفصل التاسع

تجاه الزَّعم

(١) سرّ التجسّد

لقد أثبتت لنا حياة يسوع العلنيّة عن قدرة عميقة على السيطرة على الطبيعة: لقد كانت تُطيعه، كما يطيع الخادم سيّدَه. وقد أبرزنا كيف أنّ الناس، وبدون أفكار مسبقة وأحكام مناهضة، كانوا يختبرون الدهشة أمام هذا المشهد اليومي.

نشدد من جديد على هذه الاستمرارية: لم يكن سلطان يسوع عَرَضِيًّا. فلو أردنا، بالفعل، أن ننفي أو نزيل من الأناجيل أعمال يسوع العجائبيّة، لبقينا محرومين بالكامل من "نسيج" حياته العلنيّة.

عدا عن ذلك، فإنّ هذه الأعمال العجائبيّة كان يقوم بها بهدوء تامّ، دونما حاجة إلى أيّ شيء: كان يشفي عن بُعد ويأمر الطبيعة.

كان سلطانه في المحصّلة يتجلّى كشيء طبيعيّ جدًّا له، ولهذا، لم يكن بمقدور الرجل الشريف إلا أن يشعر بانطباعٍ اختبره فريسيّ يتميز عن باقي الفريسيّين، وهو نيقوديموس الذي ذهب إليه ليلا وقال له: "يا معلّم، نحن نعرف أنّ الله أرسلك معلّمًا، فلا أحدَ يقدر أن يصنع ما تصنعه من الآيات إلّا إذا كان الله معه".^{١٩٩} مع أنّ السحرة والمشعوذين كانوا منتشرين بكثرة في الشرق الأوسط في تلك الحقبة، لكن ما كان يُبهر في يسوع هو طريقته في صنع العجائب. يمكننا القول بشكل مختصر أنّ صنعه العجائب كان يُلبّي حاجةً أخلاقيّة، ويمثّل دعوة أخلاقيّة ويحقّق تربية مثاليّة. لم يقبل أعداؤه،

بسبب تحييزهم، موقف نيقوديموس وأحجموا بهذا عن رؤية الأعمال ببساطة. فالتحييز، بالفعل، هو عندما تصبح الفكرة موقفاً، بدلاً من أن تكون إدعاءً للواقع.

وهكذا فإنهم، كما سبق ورأينا، حاولوا تفسير أعماله بشكل مختلف: ولكن لم يكن بإمكانهم إنكار فرادتها. فنادوه بالذي فيه مسّ، بالمتعصب، بالمُحدّف.

تتعلّق صحّة تفسير نيقوديموس في مواجهة تفسير أعداء يسوع بحريّة وصراحة في النفس تسمحان له باستيعاب كل أعراض بادرات يسوع المسيح في قيمتها وتقبّل نتائجها.

(٢) واقع تاريخي استثنائي

في تتبعنا إذن لمسار الذين تبعوا يسوع (من الدهشة إلى الاقتناع) وسمعوا الأجوبة التي قدّمها على الأسئلة التي طرحها الذين كانوا قريبه، وجدنا أنفسنا أمام تأكيد واقع تاريخي استثنائي: إنسان - إله. يجابهه الأعداء بوضوح: "لا نرجمك لأيّ عمل صالح عملت، بل لتجديفك. فما أنت إلا إنسان، لكنك جعلت نفسك إلهاً".^{٢٠٠} كان إنجيل يوحنا قد لاحظ هذا سابقاً: "فازداد سعي اليهود إلى قتله، لأنّه مع مخالفته الشريعة في السبت، قال إن الله أبوه، فساوى نفسه بالله".^{٢٠١}

أ (إنَّ أصل هذا الحدث، هذا الواقع، قد أُعطي في التقليد المسيحي اسم التجسّد.

قال زاهد شرقيّ يُعرف باسم ديونيسوس الأريوباغي: "إنَّ تجسّد يسوع حسب طبيعتنا لا يمكن التعبير عنه بأيّ لغة ولا يمكن معرفته

بواسطة أيّ ذكاء [...] وكون أنّه اتخذ الطبع الإنسانيّ فقد عرفناه
كسر^{٢٠٢}.

إنّ التجسّد هو سرّ كونه عملاً إلهياً؛ ولكنه سرّ بشكل خاصّ
كنتيجة، إذ أنّ الحدث المتأثريّ منه يسمو فوق حدود الأحداث الطبيعيّة.
إن مهمّة وعينا، بالإضافة إلى قبوله كأهمّ حدث في تاريخ البشريّة،
رغم عدم قدرتنا على "فهمه"، هو فهم أبعاده بشكل واضح، وهذا ممكن.
ولاحقاً، إنّ مهمّة وعينا هو التحقق من أنّ هذا الحدث لا يتناقض مع قوانين
عقلنا. وفي النهاية، الاستنارة منه لفهم أفضل للوجود الإنسانيّ.

(ب) إنّ أخذ ادّعاء المسيح على محمل الجدّ هو عمل عقلائيّ عميق، لأنّه
يمثّل كحدث في التاريخ، وكحدث يولّد "كائنًا جديدًا"، خليفة جديدة. إنّ
الجزم مسبقاً باستحالة هذا الحدث هو غير عقلائيّ، لأنّه بهذا تتمّ إزالة
طائفة الاحتمالات، التي هي خاصّة بالعقلانيّة، العقلانيّة الأصيلة^{٢٠٣}.

(ج) إنّ حدث التجسّد هو في النهاية جوابٌ فائقٌ لحاجةٍ إنسانيّة عرفت
العبريّة البشريّة دائماً كيف تشعر بها. يمكننا أن نجد في قصيدة ليوباردي
"لحييته" نبوءةً لاواعية عن المسيح بعده بـ ١٨٠٠ سنة، نبوءةٌ يعبر عنها توقُّ
ل^{٢٠٤} مكانية احتضان ينبوع الحب ذلك المدرك وراء سحر المخلوق البشريّ.

"أيّها الجمال العزيز، يا مَنْ عن بُعدٍ

أو عندما تحبّين وجهك

تُلهميني الحبّ،

وخارج النوم تهزّين قلبي

يا خيالاً إلهياً،

أو في الحقول حيث يشع
النهارُ المبهَم والضحكُ الطبيعي،
قد تكونينَ أنتِ من يطوَّبُ
العهدَ البريء الذي ينسب اسمه إلى الذهب،
ويرتفعُ بين الناس
أتطيرين يا نفسُ؟ أو أنّ المصيرَ البخيل
يحجبك عنّا، ويحضّرُ الأجيال القادمة؟

لا أمل لي من الآن وصاعدًا
في تأمّلكِ حيّة
وإن لم يكن كذلك،
فإنّ نفسي ستسير
عارية ووحيدة
في طريق جديد ومسكن غريب.
منذ بداية تفتّح نهاري
القائم غير الأكيد
أراكِ مسافرة في هذه الأرض المُجدبة.
ما من شيء على الأرض
يُشبهك؛ وحتى لو كانت هناك واحدة
تشبهك في وجهها، فإنّ أعمالها وكلامها
لن تضاهي قطّ جمالَ أعمالكِ وكلامكِ.

[...]

في الوديان، حيث يتردد صدى
نشيد المزارع التعب،
أجلس وأتذمر
من خطأ شبابي الذي يفارقني؛
وفي التلال، حيث أتذكر وأبكي
رغباتي الضائعة وأمل أيامي الضائع؛
مفكرًا بك
استيقظ وقلبي يختلج في صدري.
لو كان يمكنني في القرن الغابر والجو الفاسد
أن أحفظ الجنس السامي؛ وبما أنّ الكلام
قد انتزع من فمي فسأرضى بالصورة.

إن كنت من بين الأفكار الأبدية
من وحدها تملك شكلا محسوسا
ولا ترضى بارتداء العقل الأبدى
وبين الثياب المؤقتة
تختبرين متاعب الحياة الفانية؛
إن قبلتك أرض أخرى في العلى
بين عوالم لا تُحصى
وأنارك نجم أقوى من الشمس
وتنشقت أثيراً أطيب؛
فمن هنا حيث السنين فانية وقصيرة
تتلقين هذا النشيد من عاشقٍ مجهول".^{٢٠٥}

ألا تتجاوب حاجة ليوباردي القصوى المثالية مع شهادة يوحنا:
"ما سمعناه بآذاننا وما رأيناه بأعيننا [...] وما لمسناه بأيدينا، هو كلمة
الحياة"^{٢٠٦}

يبرز هنا الاستشعار بأنّ البعد المطلوب هو خاصّ ولكنه غير خاصّ،
وهو مقياس يرجوه الإنسان ولكنه لا يحدّده. ذلك المجهول "س" اللامتناهي
الذي نتوق إليه قد أصبح حضوراً، أصبح "شخصاً آخر"؛ "شخصاً آخر"
أصبح مقياسنا. لا وجود لشيء ترغبه إنسانياً طبيعتنا أكثر منه: إنّ طبيعة
حياتنا هي حبّ، توطيد "الآخر" كمعنى لذاتنا.

٣) أبعاد هذا الواقع الجديد

أ) أن يكون يسوع إنساناً - الها لا يعني أن الله قد "تحوّل إلى إنسان"،
بل يعني أنّ شخص الكلمة الإلهي يمتلك، بالإضافة إلى طبيعته الإلهية، الطبيعة
الإنسانية المحسوسة ليسوع الإنسان.

هذا الاتحاد لا يجب تخيّل كفضي بين طبيعتين: فشخص الكلمة، في
تجسّده، يعبر عن طبيعته الإلهية من خلال الطبيعة الإنسانية التي اتّخذها.
فالـ "طبيعة" تميّز نوع الكائن الذي تُظهره الأعمال؛ والـ "شخص" يشير إلى
الفرد، إلى الأنا، الذي يملك ويحقق الطبيعتين المتميزتين.^{٢٠٧}

ب) يحدّد سرّ التجسد النهج الذي رآه الله مناسباً واختاره ليساعد
الإنسان في الوصول إليه. يمكن أن نلخص هذا النهج كالتالي: الله يخلّص
الإنسان من خلال الإنسان.^{٢٠٨}

هذا النهج يجيب بشكل رائع:

١) على طبيعة الإنسان المُفعمّة بحاجة إلى أحساس؛

٢) على كرامة الحرّية الإنسانيّة، إذ أنّ الله يتّخذها معاونة له في عمله.

ج) من هنا يتأتّى ما يجب علينا فعله لنعرّف بتدخّل الله في حياتنا: عن طريق البحث، والانتماء قبل كل شيء إلى طبيعتنا والأخذ بعين الاعتبار أنّ نتيجة بحثٍ من أبحاثنا قد يتطلّب منا تغييراً جذريّاً وتخطّياً لحدّ طبيعتنا نفسها. إنّ الفارق بين الكنيسة الكاثوليكيّة وكلّ المعتقدات والتفسيرات المسيحيّة الأخرى ناتج بالأخصّ عن أخذ هذا النهج بعين الاعتبار.

د) يستمرّ هذا النهج في التاريخ. فإذا كان قد تدخّل واقع استثنائي كهذا في التاريخ، فإنّ الانتماء إليه يجب أن يكون ممكناً دائماً وللجميع: "وها أنا معكم طوال الأيام، حتى انقضاء الدهر".^{٢٠٩} تخاذ هذا النهج الذي يُشير إليه واقع التجسّد ينطوي على أنّ الإنسان مدعوّ إلى الانتماء دوماً إلى ذات الخلاص المقترّح، في أوقات جديدة، في ظروف جديدة، وبوسائل جديدة. إذا كان يسوع قد أتى، فهو هنا، ويبقى في الزمان مع زعمه الفريد، الذي لا مثيل له، ويحوّل الزمان والمكان، كلّ الزمان وكلّ المكان. إذا كان يسوع هو ما قال عن نفسه، فلا زمان ولا مكان يمكن أن يكون لهما مركز آخر.^{٢١٠}

٤) المقاومة الغريزيّة

أ) لقد أثبتنا كيف أنّ العقل لا يمكنه مسبقاً نفي فرضيّة أنّ السرّ قد دخل كعامل جديد في تاريخ البشريّة. بتواجدنا أمام تحقّق تلك الفرضيّة التاريخيّة بشخص يسوع، يجب علينا أن نبرز المقاومة الغريزيّة التي قد يقوم بها العقل تجاه بشارة التجسّد. كما لو أنّ الإنسان يرفض أن يتنازل السرّ

ليصبح حدثًا وكلمات إنسانية. يقاوم إنسان كل زمان نتيجة السرّ الذي يصبح جسدًا: إذا كان هذا "الحدث" حقيقيًا، فكلّ الحياة، المحسوسة والاجتماعيّة منها، يجب أن تتمحور حوله. وإدراك الإنسان هذا بالضبط بأنه لم يعد مقياس نفسه يضعه في موقف الرفض، بذريعة أنه لا يرغب برؤية عدم إمكانية ولوج السرّ مضطربة، ولا تدنيس فكرة الله بأفكار أنثروبولوجيّة، واحترام الحرّيّة الخاصّة.

ب) وهكذا، بعد الاندهاش أمام عدم نكران أعمال المسيح وعدم اعتياديّتها، ظهرت فوراً حوله مقاومة لمضمون رسالته السامي. "فلما شاهد اليهود الذين جاؤوا إلى مريم ما عمل يسوع، آمنوا به، وبعضهم ذهبوا إلى الفريسيّين وأخبرهم بما عمل"^{٢١١}. إنّه لحدثٌ معتاد: وهنا تتحقّق، كما قلنا، نبوءة سمعان الشيخ في الهيكل لأُمّ يسوع. منذ كتبة وفريسيّ ذلك الزمان وحتى كتبة وفريسيّ كل الأزمنة - ومعهم جمهورهم - كانت الحجج من أجل اتّهام زعم المسيح اللامعقول هي نفسها على الدوام: عدم تحمّل مفارقة إنسانيّته؛^{٢١٢} فشله الظاهريّ (مع تلاميذ عمواس: "كنا نأمل أن يكون هو الذي يخلّص إسرائيل، ومع ذلك قد مرّت ثلاثة أيام منذ حدوث هذه الأشياء")؛^{٢١٣} شقاء من كان يتبعه (لقد دُعِمت الاعتبارات الفلسفيّة بهذه الملاحظات الاجتماعيّة - السياسيّة).

هذه الاعتراضات هي التعبير عن المحاولة الأخيرة التي يقوم بها العقل ليفرض على الله تصوّرًا مثاليًا عنه.^{٢١٤}

ج) يشكّل حدث التجسّد فاصلا، سواء في مجال تاريخ الأديان أو في فهم الخبرة المسيحيّة نفسها، وكما يمكننا تبينه تاريخيًا من خلال

الهرطقات العديدة التي كانت مناسبة لنقاش محتدم حول المسيح في القرون الأولى^{٢١٥}.

(٥) في الختام

لقد احتدمت ضد حدث التجسد عبر القرون "عقيدة" صلبة أعلنت استحالة صيرورة الله إنساناً مدّعيةً رسم حدود عمله.

من هنا تنبع العقيدة العصرية لكل الثقافة التنويرية التي تركت، ويا للأسف، بشكل جذريّ صدًى في "الفكر" الكاثوليكيّ المزعوم: كالفصل بين الإيمان والواقع الدنيويّ. بمشاكله. هذا التصرف يشكّل بالتحديد انعكاساً للمنع الطفوليّ الذي يفرضه الإنسان على الله في التدخّل في حياة الإنسان نفسه.^{٢١٦} إنه آخر مستوى يمكن أن يبلغه الإدعاء الوثنيّ، أي زعم وصف الله بطريقة يرضى بها العقل أو يقرّها العقل.

إنّ حدث التجسد، إي الزعم المسيحيّ غير المفهوم، بقي في التاريخ بكامله جوهرياً: إنسان هو إله - يعرف إذن الإنسان، والإنسان يجب عليه أن يتبعه ليحصل على المعرفة الحقّة عن نفسه وعن الأشياء - . إنّ لخبرة الذين عاشوا مع يسوع وتبعوه، والتي نقلتها لها الأناجيل، معنًى لا لبس فيه: لم يترك القدر الإنسان وحده.^{٢١٧} إنّ المسيحية هي حدث بُشّر به عبر القرون ومازال يصل إلى يومنا هذا. إنّ المسألة الحقيقية هي في أن يُقرّ الإنسان به بحبّ.

ليس على المسيحيّ أن يقوم بالمهمة الأعظم في التاريخ فحسب، بل أيضاً بالمهمة الأرهب. إنها مهمة رهيبة لأنها مُعدّة لإثارة ردود فعل غير عقلانية. بينما هو أكثر عقلانية مواجهة ومراجعة الفرضية وفق الشروط التي تضعها هي، وبدقة أكثر، كحدث وقع في التاريخ وفيه بقي.

ملحق الحواشي

- ١ راجع ل. جوسّاني، الحسنّ الديني، دار ريتسولي للنشر، ميلانو ١٩٩٧، ص ٥٩-٧٧. (انظر النسخة العربية).
- ٢ القديس توما الأكويني، المجموعة اللاهوتية. في هذه الفقرات يذكر توما تحديد أرسطو ويُعلّق عليه.
- ٣ الأسقف ج. ب. مونتيني، حول الحسنّ الديني، رسالة راعوية إلى الأبرشية الأمبروسية بمناسبة الصيام المبارك. ٢٤ شباط / فبراير ١٩٥٧.
- ٤ يذكر جزء من نشيد مصري يعود إلى العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد مُتوجّهاً بكلامه إلى نهر النيل كما لو كان إلهاً، ومصدر كلّ حياة: "الجدُّ لك، يا والد الحياة/ إله سرّي تبرّغ من ظلمات سرية/ تُفيضُ على الحقول التي خلّقتها الشمس/ تروي القطعان/ تسقي الأرض/ طريقاً سماويّ، تنزل من العلى/ صديق الحصاد، تجعل سنابل القمح تنمو/ يا أيها الإله الذي تظهر، أنر منازلنا" (كيلوا-لامبير، كنوز الشّعَر العالميّ، دار غاليمار -الأونيسكو، باريس ١٩٥٨، ص ١٦٠). ومن مصر أيضاً، يصلنا نشيد من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مُوجّه إلى أختناتون، أيّ الشمس، والذي نذكر منه بضعة فقرات تتكلّم بشكل جيّد كيف كانت علاقة "الله" مُعاشة مع كلّ ما يمثّل الحياة: "أنت تُعطي ثمراً لأحشاء المرأة/ تضع البذار في الرجل/ تُعدي الإبن في ثدي الأم/ أنت، المُرضع في الثدي الأمومي! [...]/ يُسقي الصبّ من البيضة وهو لم يزل بعد في القوقعة/ وهناك تُعطيه أنت النّفس لكي يبقى على قيد الحياة،/وعندما تُعطيه القوّة لكي يكسرها/ فسوف يخرج، ويركض حرّاً طليقاً./ كم هي عديدةٌ ومذهلةٌ أعمالك!/ أنت، الإله الوحيد، ليس هناك إله آخر إلى جانبك!/ لقد خلقت الأرض بحسب رغبتها/ أنت وحدك، خلقت الأرض مع الرجال وماشيتهم/ [...]/ أنت في قلبي/ ولا أحدٌ يعرفك. إلاّ ابنك. الملك" (نفس المرجع ص ١٦٢-١٦٣).
- ٥ جيلبرت سيسرون، مسرحيّة "إنه منتصف الليل يا دكتور شفايتسر"، دار نشر بور، ميلانو ١٩٩٣، ص ١٥٤.
- ٦ إشعيا ٥٥، ٨.
- ٧ أفلاطون، تيمائوس ٢٨ ج.
- ٨ أفلاطون، تيمائوس ٦٨ د. يستذكر الفكر اليوناني إبتهاال الشاعر الهندي "كبير" (١٤٤٠-١٥١٨): "أيتها الكلمة المكتومة، كيف يُمكن أن أتلفظ بها؟/ كيف يُمكن أن أتوصّل إلى

القول: إنه ليس كذلك أم إنه كذلك؟/ إن قلتُ إنه فيبي كَالْكَون فسأحجل من كلامي؛/ وإن قلتُ إنه خارجٌ عَنِّي، فسأقول الباطل/ من العوالم السفلية والخارجية يصنع وحدة لا تنجز؛/ الوعي واللاوعي هما موطئ قدميه./ إنه ليس جلياً ولا مُخبئاً؛ ليس ظاهراً ولا بائناً/ ليس هنالك كلمة لِقول ما هو عليه" (كيلوا- لامبير، كنوز ...، مرجع سابق، ص ٢٣٠).

٩ وردت في س. مولير، الحكمة اليونانية والمفارقة المسيحية، مورتشيليانا، بريشا ١٩٩٨ ص ٥٢.
١٠ وردت في أ. موتي، "التعبير عن المُقدّس في الديانة اليونانية"، في "التعبير عن المُقدّس في الديانات الكبرى"، مجموعة "الرجل المتدين"، ٣، مركز تاريخ الأديان، لوفان-لانوف ١٩٨٦ ص ٢٣٢.

١١ وردت في نفس المرجع ص ٢٣٥.

١٢ وردت في س. أ. كيلير، "الصلاة والصوفية في الهندوسية"، في "خبرة الصلاة في الديانات الكبرى. نصوص المحاضرات في لوفان - لانوف ولياج (٢٢-٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨)، مجموعة "الرجل المتدين"، ٥، مركز تاريخ الأديان، لوفان-لانوف ١٩٨٠، ص ٣٤٦.

١٣ راجع سفر التكوين ١٢، ١٩-١٩. □

١٤ راجع القديس توما، المجموعة اللاهوتية.

١٥ يذكر مقطع رائع في "الحوارات" لـلرواقّي إبيتيوس: "إشكر الآلهة لأنهم وضعوك فوق كلّ تلك الأشياء التي لم يضعوها حتّى تحت سيطرتك ومن أجل جعلك مسؤولاً فقط عن تلك الأشياء التي تتوقّف عليك [...]". لو كنّا أذكاء ماذا كان علينا فعله أمام الناس وفي الخلوة إن لم يكن أن نُشيد للألوهية، ونحتفي بها، ونُحصي كلّ محاسنها؟ (...) إذن؟ بما أنّ غالبيتكم تريد أن تكون عُمياء، ألا يجب أن يقوم أحدٌ بالنيابة عنكم بإرسال النشيد باسمكم جميعاً، نشيد المدح لله؟ لو كنّا بُلبلاً لَقمتُ بعمل البُلبُل؛ لو كنّا إوزة، لَقمتُ بعمل الإوز. ولكنني كائن عقلائي، ويجب أن أنشد لله: هذا هو عملي" (دُكر في م. سيمون، "صلاة الفيلسوف والصلاة المسيحية" في "خبرة الصلاة..."، مرجع سابق ص ٢١٣).

١٦ لاحظ جوليان ريس: "في تحليله الشهير لوسائل الخبرة الدينية يُضيء اللاهوتي ومؤرخ الأديان رودولف أوتو على مراحل هذه الخبرة ومضمونها: عاطفة مخلوق يحضور الـ "السّر الرهيب والجدّاب" المُعبّر عنه في كلمات "قادوش" و"هاغيوس" و"ساكر". في هذه المقاربة، يفقه الإنسان الوجه الأوّل للقدسيّ، السامي، الجوهر، "الآخر كلياً". يقود هذا الاكتشاف الأوّل إلى اكتشاف ثانٍ، أي إلى اكتشاف "المُقدّس"، الوجه الآخر للقدسيّ، القيمة السامية، حيث يبدو الجاهل في حضوره من دون قيمة والخطيئة كَنقيض للقيمة. هنا تنشأ الديانة، التي تكون جوهرية علاقة الإنسان بالمُقدّس، مُكتشف كَسامٍ وكقيمة سامية" (ج. ريس، المُقدّس في تاريخ الإنسانية الدينيّ، ياكابوك، ميلانو ١٩٩٥، ص ٨٠).

١٧ يشهد ميرتشيا إيليادي في عمله "تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية": "من الصعب تخيل [...] كيف أنَّ الروح الإنسانية يُمكن أن تعمل دون الاقتناع بأنه يوجد في العالم شيء واقعي حتمًا؛ ومن المستحيل التخيل كيف أنَّ الوعي يُمكنه أن يظهر دون إضفاء "معنى" على اندفاعات الإنسان وخبراته. إنَّ وعي عالم واقع وذو معنى هو مُتصلٌ حميميًا باكتشاف المُقدَّس. فبواسطة خبرة المُقدَّس فقهت الروح الإنسانية التباين بين ما يظهر واقعيًا وقادرًا وغنيًا وذا معنى، وبين ما ليست له هذه الصفات: التيار الفوضوي والخطير للأشياء، ظهورها واختفائها العَرَضِيّ والفارغ من المعنى" (الحنين إلى الأصل، ١٩٦٩ ص ٧ وما يتبعها). "المُقدَّس" هو في المحصلة عنصرٌ من هيكلية الوعي، وليس مرحلة للوعي نفسه" (م. إيليادي، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، المجلد ١، سانسوني، فلورانس ١٩٩٦، ص ٧).

١٨ وهذا "التخيل" هو عمل الدينامية الطبيعية للعقل، إذن هو ثمرة طراز ثقافي يخضع له والتعبير عنه. "على مستوى جذور الكلمات - يذكّرنا أيضًا ميرتشيا إيليادي- أنَّ "التخيل" مُتصلٌ بـ "الصورة"، أي بـ "التمثيل والتقليد" وبـ "قَلْد"، أي "استنسخ". وهنا تستعيد الاشتقاقات سواءً الوقائع السيكلوجية أو الحقيقة الروحانية. التخيل يقلد نماذج مثالية - الصور-، إنّه يولدها من جديد، ويجعلها عصرية من جديد، ويكرّرها دونما توقّف. أن يكون لنا تخيل هو كروية العالم في كليته، حيث أنَّ قدرة الصور ومهمتها هي أن تُظهر كلَّ ما يبقى مُستعصيًا على المفهوم" (م. إيليادي، صور ورموز. كُتب حول الرمزية السحرية-الدينية ياكا بوك، ميلانو ١٩٨٠، ص ٢٢).

١٩ يقدّم لنا فيرنير آينجهورن مثالاً عن هذا السلوك، النموذجي في ديانات شرقية عديدة، يتعلّق بالتقليد الصيني: "ما بين الآلهة المُكرّمة في مقاطعة "وي" من المُثير للاهتمام ظهور إلهة ذُكرت للمرّة الأولى عام ٢٣٨ إبّان حُكم ثاني أمبراطور. واسمها يعني تقريباً: "نفحة من القمّة الشاهقة والتناسق المركزي". في هذه الحالة ليس أمامنا على أيّ حال أيّ إله [...] ولكن مبدأ مُتأثراً من التمتع بخصوص ولادة ونشأة الكون [...] يتناول هذا الأساس الأول لكلّ الكائن، أي النفحة الأصلية [...] والآن فإنّ ظهور هذه الأخيرة في الذبائح الرسمية، كمصدر كلّ قوى الطبيعة وعلتها، كما علّة الفصول على سبيل المثال، علّة الحرّ والبرد، والشمس والقمر، والفيض والجفاف، هذا يعني دخولاً حاسماً لفلسفة الزمان في مضمار ديانة الدولة" (و. آينجهورن، الصين (تاريخ الأديان)، ياكا بوك، ميلانو ١٩٨٣، ص ١٨١).

٢٠ قُطِفَ هذا التحديد من وصف إطار آخر- إطار الديانة السومرية - الذي قام به جوليان ريس: "تسجّل النصوص السومرية عدّة مرّات كلمة تبدو ذات أهمية حاسمة في الفكر الديني: هذه الكلمة هي "مي". لقد ترجمها السومريون بأربع طُرُق: الشرائع الإلهية: تحديدات، نماذج، قوى إلهية. تقترح روزينغارتن ترجمة أخرى: تعليمات. التعليمات هي صالحة، جليّة، خصبة،

نتحدث هنا عن قاسمٍ مشتركٍ يجعل عمل كلِّ آلهة العالم متناسقاً. (...) إنَّ السومريين قد أدركوا الكون كما لو كان محكوماً بـكلّيته، جميلاً وخيراً. لقد حدّدت الآلهة سابقاً كل الأقدار. الآلهة آن، وإنليل، وإنكي يتلفظون بـ "مي" [...] إتهم يُشكّلون صلة ما بين الآلهة والكون بهدف المحافظة على هذا الأخير في تناسقٍ واقع وجوده" (ج. ريس، المقدس....، مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٣).

٢١ في دراسته حول "المقدس" في تاريخ الإنسانية الديني، يقتطف جوليان ريس هذه الميزة وكأنّها تخصّ الديانة الحيثية: "كان هناك تناسق تعاقدي يُنظّم العلاقات ما بين الآلهة والبشر. إذ كان على البشر أن يُنفذوا إرادة الآلهة. فالإنسان هو خادم الآلهة. وهكذا، على المستوى الإنساني، فإنَّ المقدس هو حالة علاقات: يجب على الإنسان أن يتمكّن من التقرب من الآلهة" (نفس المرجع، ص ١١٣). هناك صورة أخرى لنفس الميزة، مُتعلّقة أكثر بضرورة فعالية العمل الخاص في العالم وفي التاريخ، إنه الـ"دو أوت ديس" الذي حدّده الرومان لتنظيم العلاقة بالقدر الغامض: "المقدس بالنسبة للرومانيّ هو أداة فكرية تسمح له بأن يُنظّم العالم وأن يضع نفسه في العالم. [...] حول مفاهيم "المقدس" و"القدسيّ" تتأسس "الديانة" التي تُجيز بناء هيكلية الكون وتحديد طريقة قيام العلاقات ما بين الأناس والآلهة" (نفس المرجع، ص ١٦١).

٢٢ أمون دي ليدا، الجزء الثالث، ورد في س. مورينز، المصريين (تاريخ الأديان)، ياكابوك، ميلانو ١٩٨٣، ص ١١٧.

٢٣ ورد في و. مونتغمري واط - أ. ت. وليمش، الإسلام (تاريخ الأديان)، ياكابوك، ميلانو ١٩٨١، ص ٧٣.

٢٤ هوشع ١١، ٤-٤.

٢٥ إنّها لهامة، بهذا الخصوص، شهادة ميرتشيا إيليادي، حتّى من وجهة نظر المعرفة المُستقاة من مؤرّخ أديان فقط: "هل يُمكن أن يكون هناك عملٌ على المستوى الروحيّ أنبل وأغنى من التردّد إلى النُساك الكبار لكافة الأديان، والعيش ما بين الرموز والأسرار، وقراءة وفهم أساطير كلّ الأوطان؟ يعتقد الجهال أنّ مؤرّخ الأديان هو من أهل البيت، دون اختلاف، ما بين الأساطير اليونانية والمصرية، وأنّه يشعر بالراحة في رسالة بوذا الأصلية، وفي الأسرار الطاوية أو في الطقوس السريّة للمجتمعات القديمة. [...] ولكنّ الوضع في الواقع مُختلفٌ تماماً. كثيرٌ من مؤرّخي الأديان هم مُنكبّون جدّاً على دراساتهم المُتخصّصة أمّا الأساطير اليونانية أو المصرية، وحول رسالة بوذا، والتقنيّات الطاوية والشامانية لا يعلمون أكثر بكثير ممّا يعلمه هاوٍ بمقدوره أن يوجّه قراءاته بشكلٍ مُلائم. لغالبيتهم تآلف بحقّ مع مضممار واحد بسيط وضيّق فقط في المجال الفسيح لتاريخ الأديان. [...] لقد أردنا بكلّ ثمن أن نقدّم تاريخاً موضوعياً للأديان، دون

أن تَنْبَهَ دومًا بأنَّ ما كنَّا نعتبره "موضوعية" كان يتبع طرق تفكير زمننا المعاصر" (م. إيليادي، صُور ورموز....، مرجع سابق، ص ٢٩-٣٠).

٢٦ راجع كتاب تاريخ تاسيتوس ٢٥، ٤٤، وسفيتونيوس، كتاب حياة القياصرة، الجزء الخامس ٢٥، ٤.

٢٧ راجع ج. هـ. نيومان، الدفاع عن حياته، ياكابوك - مورتشيليانا، ميلانو - بريشا ١٩٨٢ ص ٢٧٠؛ تطوّر العقيدة المسيحية، إل مولينو، بولونيا ١٩٦٧، الجزء الثاني، القسم السادس، ص ٢١٤؛ قواعد القبول، ياكابوك - مورتشيليانا، ميلانو - بريشا ١٩٨٠، فصل ١٠، ص ٢٤٥.

٢٨ ج. ريس، المقدّس...، مرجع سابق، ص ٨٢. يُتابع مؤرّخ الأديان قائلا: "كلّ يروفاينة هي ظاهرة دينيّة مُعقّدة يتواجد فيها الكائن أو الشيء الطبيعيّ، "الأخر كليًا" الذي يظهر بواسطة هذا الكائن أم هذا الشيء ويمنح هذا الكائن أو هذا الشيء في ظهوره بُعدًا مُقدّسًا يسمح بتنفيذ مهمّة وساطة".

٢٩ "كلّ عالم مصعّر، وكلّ منطقة مسكونة، لديهما ما يُمكن أن نسمّيه "مركز"، أي مكان مُقدّس بامتياز. وهنا، في هذا المركز، يظهر المقدّس بشكلٍ شموليّ [...] لا يجب على أيّ حال إدراك رمزيّة المركز هذه مع النتائج المساحي الخاصّ بالروح العلميّة الغربيّة. وكلّ واحدٍ من هذه "العوالم المصعّرة" يُمكنه أن يجد له "مراكز" مُتعدّدة. [...] كلّ الحضارات الشرقيّة - بلاد ما بين النهرين، الهند، الصين إلخ - تعرف أعدادًا لا مُتناهية من "المراكز". [...] نحن أمام جغرافيا مقدّسة ورمزيّة، الجغرافيا الوحيدة الواقعيّة فعلًا وليس علم مساحة دينيّة، إنّها "موضوعيّة"، وبشكلٍ من الأشكال مُجرّدة وليست جوهريّة، وبناءً نظريًا لمجال ولعالم لا يُسكّن ولهذا السبب لا يُعرف" (م. إيليادي، صُور ورموز....، مرجع سابق، ص ٣٩-٤٠).

٣٠ نفس المرجع ص ٤٠

٣١ ج. ريس، المقدّس...، مرجع سابق، ص ٧٢-٧٣

٣٢ نفس المرجع، ص ٧١-٧٢

٣٣ يقول مرتشيا إيليادي وهو يتكلّم عن معنى الشامانيّة وأهميّتها في ديانات أوراسيا القديمة: "يوجد خُبراء في القدسيّ"، رجال قادرون على "رؤية" الأرواح، والصعود إلى السماء والالتقاء بالآلهة، والنزول إلى الجحيم ومُحاربة الشياطين والمرّض والموت" (م. إيليادي، تاريخ....، مجلّد ٣، مرجع سابق، ص ٢٩).

٣٤ ف. آينجهورن، الصين...، مرجع سابق، ص ٦٢.

٣٥ نفس المرجع، ص ٦٨.

٣٦ م. إيليادي، تاريخ....، مجلّد ٢، مرجع سابق، ص ٢٠.

- ٣٧ نفس المرجع، المجلد ٣، ص ٢٩١-٢٩٢
- ٣٨ يُدهشنا ديونيزوس أكثر أيضًا من الآلهة اليونانيّين الآخرين، لتعدّد ظهوراته وتجدها، ولتنوّع تحولاته. إنّه في حركة دائمة؛ يخرق كلّ مكان، في كلّ البلدان ولدى كافّة الشعوب وفي كلّ الأديان، إنّه مُستعدٌّ للمشاركة مع آلهة أخرى [...]، إنّه، بدون شكّ، الإله اليونانيّ الوحيد الذي يُظهر نفسه بأشكال مختلفة، يفتن ويجذب سواء القرويين أو النخب الثقافيّة والسياسيين والتأمليّين والفجوريّين والمتصوّفين. إنّ النشوة والمجون والخصوبة الكونيّة، وكذلك أيضًا الخبرات التي لا تُنتسى المنبعثة من العودة الدوريةّ للأموات، أو من "الهوس"، من السقوط في اللاوعي الحيوانيّ أم من نشوة "الحماس" - كلّ هذه الأشياء المخيفة والظهورات لها مصدرٌ واحد: وجود الإله. إنّ طبيعته تُعبّر عن الوحدة التناقضيّة للحياة والموت. لو هذا، فإنّ ديونيزوس يُمثّل نوعًا من ألوهيّة مختلفة جذريًا عن الآلهة الأولمبيّين. هل كان ربّما، بين كلّ الآلهة، الأكثر قربًا من الناس؟ على كلّ حال كان من الممكن التقرب منه، وصولًا إلى تجسّده، وكانت نشوة "الهوس" تُبرهن على أنّه كان يُمكن تجاوز وضع الإنسانيّة" (نفس المرجع مجلد ١، ص ٤٠٢).
- ٣٩ أ. ج. فيستوجيار، مذهب الغموض الشعريّ والتصوّف الوثنيّ، ص ٤٣، ورد في نفس المرجع، مجلد ٢، ص ٢٩٧.
- ٤٠ نفس المرجع، مجلد ١، ص ٣٣٦؛ ٣٣٧.
- ٤١ نفس المرجع، ص ٣٣٣.
- ٤٢ و. مونتغمري واط- أ. ت. ويلش، الإسلام،... مرجع سابق، ص ٨٤.
- ٤٣ "انتقل مُحمّد إلى مكّة في شهرَي شباط/فبراير-آذار/مارس من عام ٦٣٢ كما لو كان مدفوعًا بشعور خفيّ: كان هذا آخر حجّ له. [...] وأملّى عليه الملاك كلمات الله هذه: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" (٣:٥). ويحسب السنّة، وعند نهاية "حجّة الوداع" هذه، هتفَ محمّد سائلًا: "يا ربّ، هل نفّذت مهمّتي جيّدًا؟"، فأجاب الجُمع: "أجل، لقد نفّذتها جيّدًا!"; "وتذكّر سنّة أخرى بالسلم الذي صعد عليه، بقيادة الملاك جبرائيل، حتّى أبواب السماء: لقد وصلَ إلى حضرة الله وعرفَ من فيه بالذات بأنه وُضع فوق كلّ الأنبياء الآخرين وأنّه هو نفسه، مُحمّد، "وليّ" الله" (م. إيليادي، تاريخ...، مجلد ٣، مرجع سابق، ص ٨٤؛ ٩٠).
- ٤٤ نفس المرجع، مُجلّد ٢، ص ٣٨٥؛ ٣٨٧
- ٤٥ نفس المرجع ص ٣٨٦. إنّه لمُثير لاهتمام تعليق ميرتشيا إيليادي على هذا الأمر: " يبدو أنّ اللاهوت ونشأة الكون ونشأة الإنسان المانويّة (الصراع بين الخير والشرّ) تُجيب على كلّ تساؤل مُتعلّق بالـ "بدايات". يُفهم هكذا كيف أنّ المانويّين كانوا يعتبرون عقيدتهم "أكثر

صِحَّة"، أي "أكثر علمية"، من الأديان الأخرى: لأنها تشرح شمولية الواقع بواسطة سلسلة من الأسباب والنتائج. في الحقيقة، هناك نوعٌ من التشابه بين المانوية والمادية العلمية القديمة والمعاصرة لأنَّ العالم والحياة والإنسان، سواء بالنسبة لِلوَاحِدِ أو لِلآخَرِ، هم نتيجة حَدَثٍ عَرَضِيٍّ (نفس المرجع ص ٣٩٢). هذه هي نتيجة قلق الإنسان: إنَّه يُحَاوِلُ أن يَجِدَ في السِّرِّ الغامض حلولاً وأجوبة، وينسى في كَدْرِهِ الأسئلة!

٤٦ ج. رافازي، "المقدمة" في هـ. رينغرين، إسرائيل (تاريخ الأديان)، ياكابوك، ميلانو ١٩٨٧، ص ٣، ١

٤٧ ج. فون راد، كتابات حول العهد القديم، ياكابوك، ميلانو ١٩٨٤، ص ١١١.

٤٨ نفس المرجع، ص ١٩٥.

٤٩ م. جيلبير، "المقدس في العهد القديم"، في التعبير... ١، مرجع سابق، لوفان-لانونف ١٩٧٨، ص ٢١٢

٥٠ البيان المجمع "في عصرنا" حول علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥، ٢، ٨٥٧-٨٥٨

٥١ راجع ج. غرين، نهاية المغامرة، موندادوري، ميلانو ١٩٧٠، ص ٢٣٥، ١

٥٢ راجع ل. جوساني، الحسَّ الديني، مرجع سابق، ص ٤-٦١

٥٣ راجع القديس فرنسيس الأسيزي، "من التأمل الثالث في الندوب المقدسة" من "أعمال القديس فرنسيس"، في "مصادر فرنسيسكانية"، الحركة الفرنسيسكانية، بولونيا ١٩٧٧، ص ١٥٩٤.

٥٤ أنظر ههنا ص

٥٥ ر. شناكنبورغ، الكنيسة في العهد الجديد، ياكابوك، ميلانو ١٩٧٣ ص ١٤.

٥٦ ر. شناكنبورغ، إنجيل يوحنا، دار بايديا للنشر، بريشا ١٩٧٣ ص ٢٦.

٥٧ وثيقة "كلمة الله"، وثيقة عقائدية حول الوحي الإلهي، ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٥، الجزء الخامس ١٩، ٩٠١. يُعلّق فالتير كاسبير بهذا الخصوص قائلا: "هناك تمييز بين ثلاث درجات في تقليد الأناجيل: ما قاله يسوع بنفسه وصنعه؛ ما الذي تناقله الرسل بعد الفصح على نور القيامة وحلول الروح القدس "تناقلوا [...] بذاك الذكاء الكامل الذي [...] نعموا به"، وفي النهاية عمل الإنجيليين الإنشائيّ الذين، وبحسب وضع كل كنيسة، كانوا ينتقون بعض الأشياء ويُلخصون أخرى ويشرحون بعضها الآخر، محافظين على طابع التبشير" (كاسبير، مدخل إلى الإيمان، دار كويرينيانا للنشر، بريشا ١٩٨٥، ص ٤٥).

٥٨ راجع م. إيلادي، تاريخ ... ، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٣٣٨: "تشير هذه التقاليد إلى يسوع كما وإلى المسيح القائم من بين الأموات، وهذا لا يُضعف بالضرورة القيمة الوثائقية؛ في الواقع إن عنصر المسيحية الأساسي، كما وأي ديانة أخرى تعود إلى مؤسس، هو بالضبط الذاكرة: إنها ذكرى يسوع تلك التي تُكوّن النموذج لكلّ المسيحيين. لكنّ التقليد المنقول من الشهود الأوائل كان "نموذجياً" وليس فقط "تاريخياً"؛ أي أنّه كان يحتفظ بالهيكليات المعبرة للأحداث وللتبشير، وليست هي إذن الذكرى الدقيقة لنشاط يسوع. وهذه ظاهرة معروفة جيّداً، وليس فقط في تاريخ الأديان".

٥٩ راجع بهذا الخصوص هانس فون بالتازار، إدراك الشكل، المجد، الجمالية اللاهوتية-المجلّد الأول، ياكوبوك، ميلانو ١٩٧٥، ص ٥٠٩-٥١٠: "يظهر بكلّ عجزه قصد أولئك مُفسّري الكتب المقدّسة، سواء كانوا مؤمنين أم لا، الذين يبحثون عن صورة "حيادية" وتسجيل على شريط ليسوع التاريخي. التصوير هو إجراء فيزيائي وآلة التصوير لا يمكنها أساساً أن تُصوّر إلّا ما يظهر أمامها فيزيائياً، حتّى ولو كان الأمر يتعلّق بملامح وجه إنسان. لكنّ علم التاريخ هو بحثٌ عن معنى ولا يمكنه أن يجد أساساً معنى أكبر من الذي يكون مُستعدّاً أن يودّعه ويستثمره مُسبقاً. إنّ ما هو مُستعدّد أن يُعطيه في هذه الحالة، قد خذله الصور النمطية لنماذج يسوع المتعدّدة. في هذه النماذج نجد أنهم أخفوا غالباً وبخيلة ما الملامح الجوهرية: زعم يسوع الذي يخرق كلّ كلماته وأعماله والذي هو أيضاً حاجة موجهة إلى مؤرّخيه بالأّ يقتصدوا كثيراً في المعنى".

٦٠ أنظر ههنا ص...

٦١ راجع لويجي جوسّاني، الحسّ الديني، ص...

٦٢ ٤٥٦؛ ٤٣٦ هانس فون بالتازار، الإدراك، مرجع سابق، ص...

٦٣ هنري دو لوباك، الوحي الإلهي ومعنى الإنسان. تعليقات على الوثيقتين المجمعتين "الوحي الإلهي" و"فرح ورجاء"، في "الأعمال الكاملة" (أوبيرا أومنيا)، مجلّد ١٤، ياكوبوك، ميلانو ١٩٨٥ ص ١٦١؛ ١٦٧.

٦٤ المرجع ذاته ص ٣٣-٣٤. ١

٦٥ ب. روسولو، في روسولو وهوبي، "العهد الجديد"، في "كريستوس، كتاب تاريخ الأديان"، بوشين، باريس ١٩٢٧، ص ٩٨٢.

٦٦ راجع لويجي جوسّاني، الحسّ الديني، مرجع سابق، ص

٦٧ روسولو، عيون الإيمان، ياكوبوك، ميلانو ١٩٧٧، ص ٥٧.

٦٨ تريمونتان، الذكاء أمام الله، ياكوبوك، ميلانو ١٩٨١ ص ٩٨.

٦٩ شناكنبورغ، الإنجيل...، مرجع سابق، ص ٩٤، لقد أُعيدَ النظر في هذا الوقت بالأحكام الأكثر راديكالية في العلم نفسه (مثلا، بعد اكتشاف البردى القديمة جدًا وخاصةً الب ٥٢ لـ ١٣٠، أُعيدَ النظر في التأريخات الأكثر حداثة والتي كانت تصل إلى نهاية القرن الثاني)، وقد قُدِّرَت أكثر القيمة التاريخية لبعض المعلومات الواردة في إنجيل يوحنا" (نفس المرجع).

٧٠ راجع يوحنا ١، ٣٥-٥١.

٧١ راجع يوحنا ٢، ١-١٢.

٧٢ شناكنبورغ، الإنجيل...، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٤٦٠.

٧٣ "في القدر الذي يُحقِّق به الإنسان، داخليًا وإنسانيًا، ما يُعبِّر عنه هذا الرجل، يختبر بأنّه يجب الإيمان به لكي يستطيع فهمه. والإنسان لا يختبر هذا كاحتمال مُبهم، بل في بدايتها المُليحة" (فون بالتازار، الإدراك...، مرجع سابق، ص ٤٢٨).

٧٤ أنظر هنا ص ...

٧٥ راجع مرقس ٢، ١-١٢؛ لوقا ٥، ١٧-٢٦.

٧٦ راجع متى ٢٢، ١٥-٢٢؛ مرقس ١٢، ١٣-١٧؛ لوقا ٢٠، ٢٠-٢٦. ١.

٧٧ راجع يوحنا ٨، ١-١١.

٧٨ يُلاحظ رودولف شناكنبورغ بهذا الخصوص: "يجد يسوع نفسه في وضع دقيق: هل عليه أن ينكر روح الرحمة ذاك الذي بَشَّرَ به دومًا، أم أن يُناقض الشريعة بشكلٍ واضح؟ وإذا كان الحكم أيضًا قد صَدَرَ، فإنَّ موقفه سيكون أخطر: أو أنه سيضع نفسه ضدَّ المحكمة اليهودية (علمًا بأنه في ذاك الزمان لم يكن بإمكان لليهود تنفيذ الحكم بالموت [...]) أو يظهر للرومان كرجلٍ ثائر. إننا أمام وضع سياسيٍّ بالغ الحساسية كما الوضع المتعلِّق يدفع الجزية لقيصر" (شناكنبورغ، الإنجيل...، مرجع سابق، دار النشر بايديا، بريشا ١٩٧٧، ص ٣٠٦-٣٠٧).

٧٩ راجع يوحنا ٤، ١-٤٢.

٨٠ راجع متى ٩، ٩-١٣؛ مرقس ٢، ١٣-١٧؛ لوقا ٥، ٢٧-٣٢.

٨١ راجع لوقا ١٩، ١-١٠.

٨٢ "يسوع يفرض نفسه على الضمائر. إنه كما في بيته حين ينظر إلى باطن الآخرين [...] . إنه لا يقتصر على إعلان عقيدة عرفها كعلمٍ أو تعلّمها بواسطة وحي: إنه يتعامل، يُمكننا القول، مع شأنٍ شخصيٍّ" (روسولو، في روسولو-هوبي، "العهد الجديد"، مرجع سابق، ص ١٠١٨-١٠١٩).

٨٣ راجع لوقا ٧، ١١-١٧.

- ٨٤ راجع لوقا ١٣، ١٠-١٧
- ٨٥ راجع متى ١٩، ١٣-١٥؛ مرقس ١٠، ١٣-١٦؛ لوقا ١٨، ١٥-١٧
- ٨٦ راجع متى ١٨، ١-١١
- ٨٧ راجع متى ١٢، ٩-٢١
- ٨٨ راجع لوقا ٧، ٣٦-٥٠
- ٨٩ راجع يوحنا ١١، ١-٤٤
- ٩٠ ر. شناكنبورغ، الإنجيل...، مرجع سابق، ص ٥٦٠
- ٩١ راجع لوقا ١٩، ٤١-٤٤
- ٩٢ "يجب التكلّم عن سرّه كما عن حياته. يُعلّم يسوع طبعًا سُلطان. [...] لا يتردّد أبدًا بتأكيدِه. لا يبدو أبدًا "مُراعياً لآراء الآخرين". ولكن التأمّل في النصوص الإنجيليّة تدلّ على أنّه إن كان يُبشّر بسرّ هو أكيدٌ منه، فإنّ ما يُبشّر هو سرّ يخصّه [...] من كان هو؟ بالتأكيد كان إنسانًا... ومع ذلك فهو يعلم ما في داخل الإنسان، وبنفس البساطة التي يقول بها أنه أعظم من داوود وسليمان ويونان ومن الهيكل، فإنه يضع نفسه فوق الملائكة" (روسولو، في روسولو-هوبي، "العهد الجديد"، مرجع سابق، ص ١٠٢٠-١٠٢٢).
- ٩٣ راجع يوحنا ٦، ٢٢-٧١
- ٩٤ راجع مرقس ٤، ٣٥-٤١.
- ٩٥ راجع يوحنا ١٠، ٢٤
- ٩٦ راجع لوقا ٢، ٣٣-٣٥
- ٩٧ راجع متى ٥، ١، ٣
- ٩٨ راجع متى ١٨، ٣؛ مرقس ١٥، ١٠؛ لوقا ١٨، ١٧
- ٩٩ راجع يوحنا ٢٤، ١٠.
- ١٠٠ رومانو غوارديني، شخصيّة يسوع المسيح في العهد الجديد، مورتشيلانا، بريشا ١٩٦٤، ص ٩٨.
- ١٠١ متى ١٠، ٣٩.
- ١٠٢ متى ١٠، ٣٢-٣٣.
- ١٠٣ متى ١٠، ١٤-٢١، ١٨-٢٢. ٢٤-٢٧، ٢٥.
- ١٠٤ متى ١٢، ٤٦-٥٠.

- ١٠٥ متى ١٠، ٣٤-٣٩، ٣٧.
- ١٠٦ راجع رومانو غوارديني، جوهر المسيحية، مورشيلا، بريشا ١٩٨١ ص ٣٩.
- ١٠٧ راجع تريغوتان، "المسيحية، الفلسفة، العلوم"، ياكابوك، ميلانو ١٩٨٣ ص ٢٤٧.
- ١٠٨ متى ٥، ٢١-٢٢. ٢٧-٢٨. ٣١-٣٢. ٣٣-٣٤. ٣٨-٣٩. ٤٣-٤٤.
- ١٠٩ أنظر هنا، ص ...
- ١١٠ و. كاسبير، المقدمة...، مرجع سابق، ص ٥٨؛ ٥٩-٦٠.
- ١١١ راجع متى ٢٥، ٣١-٤٤.
- ١١٢ يُلاحظ بيار روسولو بهذا الصدد: "إنَّ هذا يعني في البداية العيش بحسب تعاليمه، وهي تعاليم ذات سلطان أكثر صرامةً وأساساً من سلطان موسى... إنه أيضاً، العيش كما عاش هو... وفي النهاية، العيش من أجله... (متى ١٠، ٣٧ و ١٩، ٢٩). هذه الكلمات، إن أردنا التأمل بها جيداً، أعجب من الكلمات التي يغفر بها الخطايا أو يُعلن بها نفسه كقاضي أعمال الجميع في اليوم الأخير. إنَّه هو من يجب السير وراءه على الدرب، هو من سنجده في النهاية، وهو من نبغي محبته، عندما نريد فعل الخير" (ب. روسولو، في ب. روسولو - ج. هوبي، "العهد الجديد"، في المسيح...، مرجع سابق، ص ١٠١٩-١٠٢٠).
- ١١٣ انظر ههنا، ص ٤٩-٥١
- ١١٤ راجع متى ١٦، ١٣-١٩.
- ١١٥ متى ١٢، ١، ٢٠.
- ١١٦ متى ١٣، ١٢؛ ٢٩، ٢٥.
- ١١٧ ر. شناكنبرغ، الإنجيل...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٢٦٩-٢٧٠.
- ١١٨ متى ١٦، ٢٢.
- ١١٩ مرقس ٨، ٣٢.
- ١٢٠ متى ١٦، ٢٣؛ مرقس ٨، ٣٣.
- ١٢١ متى ٢٢، ٤١-٤٦.
- ١٢٢ راجع يوحنا ٨، ٣١-٥٩.
- ١٢٣ ر. شناكنبرغ، الإنجيل...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٣٥٣.
- ١٢٤ المرجع نفسه، ص ٣٥٥-٣٥٦.
- ١٢٥ المرجع نفسه، ص ٣٧٨؛ ٣٨٠-٣٨١.
- ١٢٦ المرجع نفسه، ص ٣٨٢.

١٢٧ المرجع نفسه، ص ٣٩٥.

١٢٨ المرجع نفسه، ص ٣٩١.

١٢٩ يلاحظ هانس فون بلتازار بهذا الخصوص: "ألا يذكر الإنجيل كلمات تبدو لكل نفس تقيّة مضطربة ومصابة بالرجفان؟ ليس وحده اليوناني بل أيضاً اليهودي مدفوعان للرجفان في تقاوتهم الأصيلة وكل من يصرخ هنا ضد التجديف يكون على حق، ما خلا في حالة المسيح. فمن الناحية الدينية لهذه الكلمات صدى "لا يُطاق". ينبغي بالفعل ملاحظة أنّ من ينطق بها ليس الإله العاري، بل إنسان، وإن كان الله يتكلّم به. [...] لهذا يُمكن إعطاء مبرّر واحد: أنّ هذا الرجل يتصرّف ضمن الطاعة، وأنه حين ينسب لنفسه صفات إلهيّة يكون طائعاً جداً. لكنّ هذا ممكن فقط إذا ما كان هذا الرجل الذي "يصبح" إلهاً، إلهاً عندما يصبح إنساناً. الأمر الأوّل وحده يكون فقط رجفاناً واضحاً ولا يمكنها أن يكون تُفهم كطاعة بشرية. إنّ الشيء الأكيد الذي يُمكن قوله عن الرجل هو أنّه ليس الله". (هـ. فون بلتازار، إدراك...، مرجع سابق، ص ٤٤٨).

١٣٠ ر. شناكنبرغ، الإنجيل...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٣٩٧

١٣١ راجع ل. جوسّاني، الحسّ الدينيّ، مرجع سابق، ص ٤٤-٣١.

١٣٢ ر. شناكنبرغ، الإنجيل...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٤٠٠

١٣٣ راجع متى ٢٦، ٤٧-٦٨.

١٣٤ راجع المزمور ١١٠، ١؛ سفر دانيال ٧، ١٣-١٤

١٣٥ يوحنا ١٩، ٧ ب

١٣٦ لوقا ٢، ٣٤-٣٥

١٣٧ يوحنا ١، ١٠-١١

١٣٨ يوحنا ٣، ١٩-٢١

١٣٩ يوحنا ٨، ٤٣-٤٧

١٤٠ راجع يوحنا ٩، ١-٤١

١٤١ راجع يوحنا ١١، ١-٤٦

١٤٢ ر. شناكنبرغ، الجزء الثاني، الإنجيل...، مرجع سابق، ص ٤٠٣؛ ٤١٩

١٤٣ المرجع نفسه، ص ٤٢٥

١٤٤ أن "لا يعني لي المسيح شيئاً" ليس عكس أن يعني كل شيء للجميع. وهنا لا يتعلّق الأمر، كما في العلوم، بتكيّف تقنيّ سهل لطريقة التفكير وبكلام تصوّري في فرع معيّن من

المعرفة، بل بالأحرى بانسجام كل الوجود الإنسانيّ مع شكل المسيح. وليست هي فقط شروط سالفة عقلية، وإثما وجودية و يجب حصولها لأن الشكل، الذي يستدعي كلّ الوجود، يجد أيضًا الإصغاء في هذه الوجودية بكلّيتها" (هانس فون بالتازار، إدراك...، مرجع سابق، ص ٤٣٤-٤٣٥).

١٤٥ يوحنا ١٥، ٢٢-٢٥

١٤٦ متى ١٦، ٢٦

١٤٧ متى ١٨، ١٠

١٤٨ متى ١٣، ٤٤-٤٦

١٤٩ متى ١١، ٢٧

١٥٠ متى ١٦، ١٧

١٥١ متى ٢٢، ٣٦-٣٩

١٥٢ راجع متى ٢٥، ٣١-٤٦

١٥٣ راجع متى ٥، ١-١٢

١٥٤ راجع متى ٦، ٢٥-٣٤

١٥٥ متى ١٠، ٢٨-٣٣

١٥٦ راجع أ. غاتري، التعليق على إنجيل القديس متى، دار النشر البولسية، ميلانو، ١٩٥٧، ص ٨٢

١٥٧ راجع متى ٩، ٤٣-٤٨

١٥٨ إن علاقتي الدينية مع الله تتحدّد بالضبط بتلك الظاهرة الفريدة التي لا تتكرّر في مكان آخر، أي كلّما أسلّم له ذاتي بالملء، وأجعله يدخل فيّ أكثر، كلّما يملّك فيّ، هو الخالق، وقوة أكبر، وكلّما أصبحت أنا ذاتي أكثر فأكثر" (ر. غوارديني، الوعي، مورتشيليانا، بريشا ١٩٤٨، ص ٥٩).

١٥٩ متى ٧، ٢١

١٦٠ متى ٧، ٢٤-٢٧

١٦١ يوحنا ٥، ٣٠

١٦٢ يوحنا ٥، ١٧. ١٩. ٢٦. ٣٦ب؛ ٦، ٣٨. ٥٧؛ ٧، ٢٨ب-٢٩؛ ٨، ٢٨. ٣٨. ٤٢. ٥٥-٥٤

١٦٣ متى ١٤، ٢٣

- ١٦٤ راجع لوقا ١٨، ١
- ١٦٥ يوحنا ٨، ١٦. ٢٩
- ١٦٦ يوحنا ١٧، ١٠ ب
- ١٦٧ يوحنا ١٠، ٣٠
- ١٦٨ يوحنا ١٥، ٥ ب
- ١٦٩ لوقا ١٢، ٢٥-٢٦. ٣٠
- ١٧٠ لوقا ١١، ٢-١
- ١٧١ يوحنا ٤، ٣٤
- ١٧٢ راجع أفسس ٣، ٩
- ١٧٣ يوحنا ١٧، ١. ٢ ب-٣. ٢٤
- ١٧٤ لوقا ١١، ٥-١٣
- ١٧٥ لوقا ١٨، ٨-١
- ١٧٦ لوقا ٢٢، ٤٢
- ١٧٧ يوحنا ١٢، ٢٣-٢٦
- ١٧٨ يوحنا ١٠، ١٤-١٥ ب
- ١٧٩ يوحنا ٦، ٣٢-٣٥. ٥٤-٥٥ ب
- ١٨٠ راجع متى ٢٦، ٢٦ ب؛ لوقا ٢٢، ١٩ ب
- ١٨١ بول كلوديل، البشارة إلى مريم، بور، ميلانو، ٢٠٠١، ص ١٧٩
- ١٨٢ لوقا ٩، ٢٤
- ١٨٣ مرقس ١٠، ٢٩-٣٠
- ١٨٤ متى ١٩، ١٢ ب
- ١٨٥ هناك انسجام حاصل: فالإنجيل يعلم المسيحي أنّ ما من شيء مدّس، لأنّ كلّ شيء يُمكن تقدّسه. لم يُهمل آباء الكنيسة التشديد على هذا الأمر الجديد. والخلقة الجديدة التي دعا إليها يسوع لا تضع نفسها تحت إملاءات التناقض بين المقدّس والمدّنس. والله يقوم في تاريخ البشريّة بعملٍ يكمل بشكل عميق الخلق (ج. ريس، المقدّس والمدّنس. مرجع سابق، ص ٢٢٤). هناك ملاحظة، بنفس المعنى، لمرتشيا إلليادي "على كلّ حال، ليس هناك شيء، عبر كلّ الكون، ممّا يُظهر المجد - كيما نستخدم عبارات مسيحية - يمكنه أن يترك المؤمن بدون مبالاة" (م. إلليادي، صور ورموز...، مرجع سابق، ص ٣٧).

- ١٨٦ يوحنا ١، ١٢؛ ٣١، ١٥، ١٨
- ١٨٧ الرسالة إلى أهل روما ٧، ٢٤
- ١٨٨ يوحنا ١٥، ٥ب
- ١٨٩ يوحنا ١٤، ٦ب
- ١٩٠ يوحنا ١٥، ١٣
- ١٩١ يوحنا ١١، ٢٥ب
- ١٩٢ يوحنا ١٠، ١٧-١٨أ
- ١٩٣ يوحنا ٣، ١٩؛ ٤٠، ٥
- ١٩٤ راجع يوحنا ٣، ٢٠؛ ١٢، ٣٥
- ١٩٥ يوحنا ٨، ٣١-٣٢
- ١٩٦ راجع متى ١٩، ٢٩
- ١٩٧ متى ١٠، ٣٤ب
- ١٩٨ لوقا ٦، ٢٤-٢٥ب
- ١٩٩ يوحنا ٣، ٢
- ٢٠٠ يوحنا ١٠، ٣٣
- ٢٠١ يوحنا ٥، ١٨
- ٢٠٢ ديونيسيوس الأريوباغي، طريق إلى الله، وضعه ب. سكاتسوزو، ياكابوك، ميلانو، ١٩٨٩، ص ٦٣
- ٢٠٣ في هذا الموضوع أنظر س. تريمونتان، الذكاء...، مرجع سابق، ص ١١١: "إنّ التعارض بين العقل والإيمان يمكن اختزاله بالتعارض بين عقل معتاد على معرفة معلومة معينة، لكنّه رافض للقبول بهذا الأمر الجديد... الذي يتطلّب منه، أي من العقل، تجددًا... وباسم هذا التحكم من قبل القديم بالجديد، فإنّ عقلا يرفض خلق شيء جديد لم يكن يتوجّب عليه الإيمان - كما يلاحظ القديس يوستينوس - حتى باحتمال الخلق كلّ، أي خلق العالم، ولا باحتمال خلقه هو... هذا هو المؤشّر لمغالطة اعتيادية للفكر الذي يعطي نفسه حقّ الحكم مسبقاً على المعقول واللامعقول، باسم المعلومة الواقعية القديمة، كأنّ الواقع لم يكن دائماً في مرحلة تجدد وخلق، لدرجة أنّ لا يستطيع معها العقل إلا القبول باللاشيء، فيما لو سئل رأيه".

٢٠٤

٢٠٥ ليوباردي، "إلى حبيبته" في "أيها الجمال العزيز"، بور، ميلانو، ١٩٩٦، ص ٥٣-٥٥

٢٠٦ رسالة يوحنا الأولى، ١، ١، ١

٢٠٧ راجع ليون الكبير، رسالة إلى فلافيانوس، ٢٨، ٤-٣

١٢٠٨ ديونيسيوس الأريوباغي: "لقد أصبحت وحدة وبساطة ولامرئية يسوع، الكلمة الإلهي، وعن طريق التجسد على طبيعتنا، مؤلفة ومرئية ... بسبب طبيعته وحبّه للبشر، وأتينا بفائدة فائقة في إمكانية شراكة موحدة معه، موحدّين بؤسنا مع أعظم ما لديه من ألوهي، إذا ما تعلّقنا نحن بالمسيح، كالأعضاء في الجسم، وفق هويّة حياة طاهرة وإلهية.

٢٠٩ متى ٢٨، ٢٠ ب

٢١٠ راجع مرشيا إلبادي، الصور...، مرجع سابق، ص ١٥٠. "من أين يأتي [...] ذلك الشعور الذي لا يقاوم، الذي يحسّه خاصّة غير المسيحيين، بأنّ المسيحية جدّت بالنسبة إلى التدين السابق؟ بالنسبة للهندوسي الذي يتعاطف مع المسيحية، إنّ التجدد الذي يؤثّر فيه أكثر من غيره (إذا ما استثنينا رسالة المسيح أو ألوهيته) هو إعطاء قيمة للزمان، وفي نهاية المطاف لخلاص الزمان والتاريخ. [...] فالزمان يصبح اكتمالا بفضل حدث التجسد نفسه لكلمة الله؛ مع ذلك فإن هذا الحدث نفسه يغيّر مجرى التاريخ. كيف يمكن ألا تكون هناك جدوى من الزمان وأن يكون فارغاً إذا كان قد "شهد" ولادة يسوع، وآلامه وموته وقيامته؟ كيف يمكن إرجاعه وتكراره إلى ما لا نهاية؟

٢١١ يوحنا ١١، ٤٥-٤٦

٢١٢ لقد عبّر تشلسوس، وهو خطيب وثني من القرن الثاني، عن اعتراضه على إنسانية المسيح بهذه الكلمات: "إذا كان هناك أحد بين المسيحيين أو اليهود من يدّعي أن الها أو ابن اله قد نزل أو يجب أن ينزل إلى الأرض، كقاضٍ للأمور الأرضية، فإنّ هذا يكون، من بين كل ادعاءاتهم، الأكثر مدعاة للخلل ولن تكون هناك حاجة لخطاب طويل لرفضه. ما معنى أن يقوم الله برحلة كهذه؟ هل يمكن أن تخدم لمعرفة ماذا يحدث بين البشر؟ ولكن الله ألا يعلم كلّ شيء؟ وإذا ما افترضنا سلطته الإلهية، إثم إذن عاجز على تحسين البشر دون أن يبعث بجسد أحدهم لتحقيق هذه النتائج؟... أم إثم علينا مقارنته بأحدٍ ما وصل، كان إلى ذلك الحين مجهولاً من قبل الجموع ولا يصبر على إظهار نفسه أمامهم للمباهاة بغناه؟ [...] وإذا كان، كما يؤكّد المسيحيون، قد جاء ليساعد البشر لدخول طريق الصواب، فلمَ لم ينتبه لهذا الواجب إلّا بعد أن تركهم مشردين لقرون عديدة؟ (أوريجينوس، "ضد تشيلسوس ...، الجزء الرابع، ٣-٥، في ج. باردي، الاهتداء إلى المسيحية في القرون الأولى، ياكابوك، ميلانو ١٩٧٥، ص ١٨١.

٢١٣ لوقا ٢٤، ٢١

٢١٤ يسوق تشيلسوس أيضاً، وبعبارة فلسفية، الاعتراض التالي: "لا أقول شيئاً جديداً، ولكن أشياء تُرهنت منذ القدم. الله صالح، جميل، سعيد. حالته ممتازة وجميلة جداً. إذا نزل إلى البشر، فهذا يعني بأنه يعرض نفسه لتغيير؛ هذا التغيير سيحوّله (حتمًا) من صالح إلى سيء، من جميل إلى بشع، من سعيد إلى تعيس، من خير إلى شرّير. من يريد تغييراً كهذا؟ عدا عن ذلك، كلّ ما يفنى، يبقى بالجوهر دومًا معرضًا للتجاذبات والتحوّلات. أمّا ما هو سرمدّي فيبقى مطابقًا لنفسه. من المستحيل إذن أن يتعرّض الله لتغيير من هذا النوع" (أوريجينوس، ضد تشيلسوس، الجزء الرابع، ١٤ ورد في ج. باردي، الاهتداء...، مرجع سابق، ص ١٨١).

٢١٥ بخصوص إحدى أخطر الهرطقات، الدوقيطيّة، يلاحظ مرشيا أليادي: "إنّ الدوقيطيّة، إحدى أوائل الهرطقات، وهي ذات أصل وهيكلية غنوصيان، تستشهد بشكل دراميّ مقاومة فكرة التجسّد: فبالنسبة للدوقيطيين (نسبة إلى اليونانية "دوكيو" أي يبدو ويظهر) فإنّ الفادي لم يكن يستطيع قبول إذلال التجسّد والعذاب على الصليب؛ وكانوا يعتقدون أنّ المسيح "بدا" رجلاً لأنّه لبس مظهر شكل إنسانيّ. [...] كان الآباء محقّقين في دفاعهم المستميت عن عقيدة التجسّد، [...] فالله تجسّد بشكل كامل بكائن إنسانيّ آخر محسوس وتاريخيّ - "إي كائن فاعل" في زمنيّة تاريخيّة محصورة وغير قابلة للرجوع عنها - دون أن يتقوقع مع ذلك في جسده (لأنّ الابن مشارك للآب في الجوهر)" (م. إليادي، تاريخ...، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٤٠٦). انظر أيضاً "بخصوص المسيح: الجدل الكبير في القرن الرابع"، تنسيق إ. بليني، ياكابوك ميلانو ١٩٧٨.

٢١٦ إنّ موقف ظهر سابقاً في المزامير عندما تضع في فم قليل التقوى هذه العبارات: "الله لا يرى، لا يهتّم" (راجع المزمورين ٩، ٢٥؛ ٩٤، ٧).

٢١٧ إنّ الأناجيل، كما يلاحظ كلود تريمونتان، "لم تقدّم كامل التجربة الأساسية ولم تحافظ عليها. [...] لقد جمعت معلومات وتقاليد شفهيّة متأتية في النهاية من الذي كان موضوع هذه التقاليد. [...] ففي انتقال الأقوال الشفهية كان لا بدّ من فقدان بعض المعلومات. [...] وعلى الرغم من كلّ ذلك يبقى أنّ آباء وملافين ولاهوتيّ الأجيال اللاحقة قد توفّر لهم من هذه الكتب الصغيرة مضمونٌ خيرة أساسيّة، وهي خيرة الشهود. لقد كانت هذه الخيرة الأساسيّة دون غموض. يسوع الناصري كان رجلاً، بكلّيته وبكامله رجلاً، تشرّحاً وفيزيولوجياً وسيكولوجياً. ولكنّه لم يكن فقط رجلاً، كانت لديه معرفة وحكمة وقدرة وقدسيّة، ليست لأيّ رجل، بل للمخلوق غير المخلوق، إنّها الله. هذه هي الخبرة الأساسيّة (تريمونتان، المسيحية... ص ٢٤٩-٢٥٠).

الفهرس

٣	تمهيد.....
٥	المقدمة.....
٥	(١) العامل الدينيّ والحياة.....
٦	أ (ملاحظة حول كلمة "الله".....
٧	ب (ملاحظة حول السؤال الذي يقود إلى بحث دقيق.....
٨	(٢) الوضع الإنسانيّ الذي يسبّب الدّوار.....
١١	(٣) العقل في بحثه عن حلّ.....
١٣	الفصل الأول: الإبداع الدينيّ للإنسان.....
١٤	(١) بعض مواقف البنيويّة الدينيّة.....
١٧	(٢) باقة فرضيّات.....
٢١	الفصل الثاني: تطلّب الوحي.....
٢٢	(١) بعض الأمثلة.....
٢٧	(٢) أمام زعم لا يمكن تخيّل.....
٢٩	الفصل الثالث: اللغز كواقع في مسار البشرية.....
٣١	(١) قلب النهج الدينيّ رأساً على عقب.....
٣٢	(٢) فرضيّة ليست فقط فرضيّة.....
٣٤	(٣) مسألة يجب حلّها.....
٣٦	(٤) مسألة واقع.....
٣٩	الفصل الرابع: كيف نشأت المسألة في التاريخ.....
٣٩	(١) الحدث كمعيار.....

٤٣	(٢) تنبّه نهجيّ.....
٤٤	أ (مُشاطرة وتعايش
٤٤	ب (استيعاب الدلائل هو طريق اليقين
٤٦	٣ نقطة الانطلاق
٥٣	الفصل الخامس: تعمّق اليقين بمرور الزمن.....
٥٣	(١) مسار الاقتناع
٥٥	أ (اكتشاف رجل لا مثيل له
٥٨	ب (السلطان والطيبة.....
٦١	(٢) بزوغ سؤال وظهور مُفاجئ لليقين.....
٦٣	٣ (حالة يقين أخلاقيّ.....
٦٥	الفصل السادس: نهج المسيح التربويّ في كشفه لذاته.....
٦٩	(١) الخطوط الأساسيّة للنهج التربويّ التبيانيّ
٦٩	أ (المعلّم الذي يتوجّب اتّباعه.....
٦٩	ب (ضرورة التجرّد.....
٧٠	ج (أمام الجميع.....
٧١	(٢) من أجل اسمه: مركز الحرّيّة.....
٧٥	٣ (زمن المساواة.....
٧٦	أ (مصدر الشريعة
٧٦	ب (سلطان غفران الخطايا
٧٧	ج (المساواة بالمبدأ الأخلاقيّ.....
٧٩	الفصل السابع: الإعلان الصريح.....
٨١	(١) البيان الأول للصراحة
٨٣	(٢) مضمونُ تحدّيّ.....

٨٧	٣) الإعلان الحتامي
٨٩	٤) رصانة الحرّية
٩١	الفصل الثامن: تصوّر يسوع للحياة
٩١	١) تمهيد: تربية على الأخلاق ضرورية للفهم
٩٥	٢) القوام الإنساني
٩٦	أ) قيمة الشخص
٩٧	ب) الاعتماديّة الأصيلة
١٠٠	٣) الوجود الإنساني
١٠١	٤) وعيٌ يعبر عن ذاته بسؤال
١٠٧	٥) شريعة الحياة
١٠٧	أ) وهب الذات
١١١	ب) الفوضى الإنسانية
١١٢	ج) الحرّية
١١٤	٦) خاتمة
١١٧	الفصل التاسع: تجاه الزّعم
١٧٧	١) سرّ التجسّد
١١٨	٢) واقع تاريخي استثنائي
١٢٢	٣) أبعاد هذا الواقع الجديد
١٢٣	٤) المقاومة الغريزيّة
١٢٥	٥) في الختام
١٢٧	ملحق الحواشي

